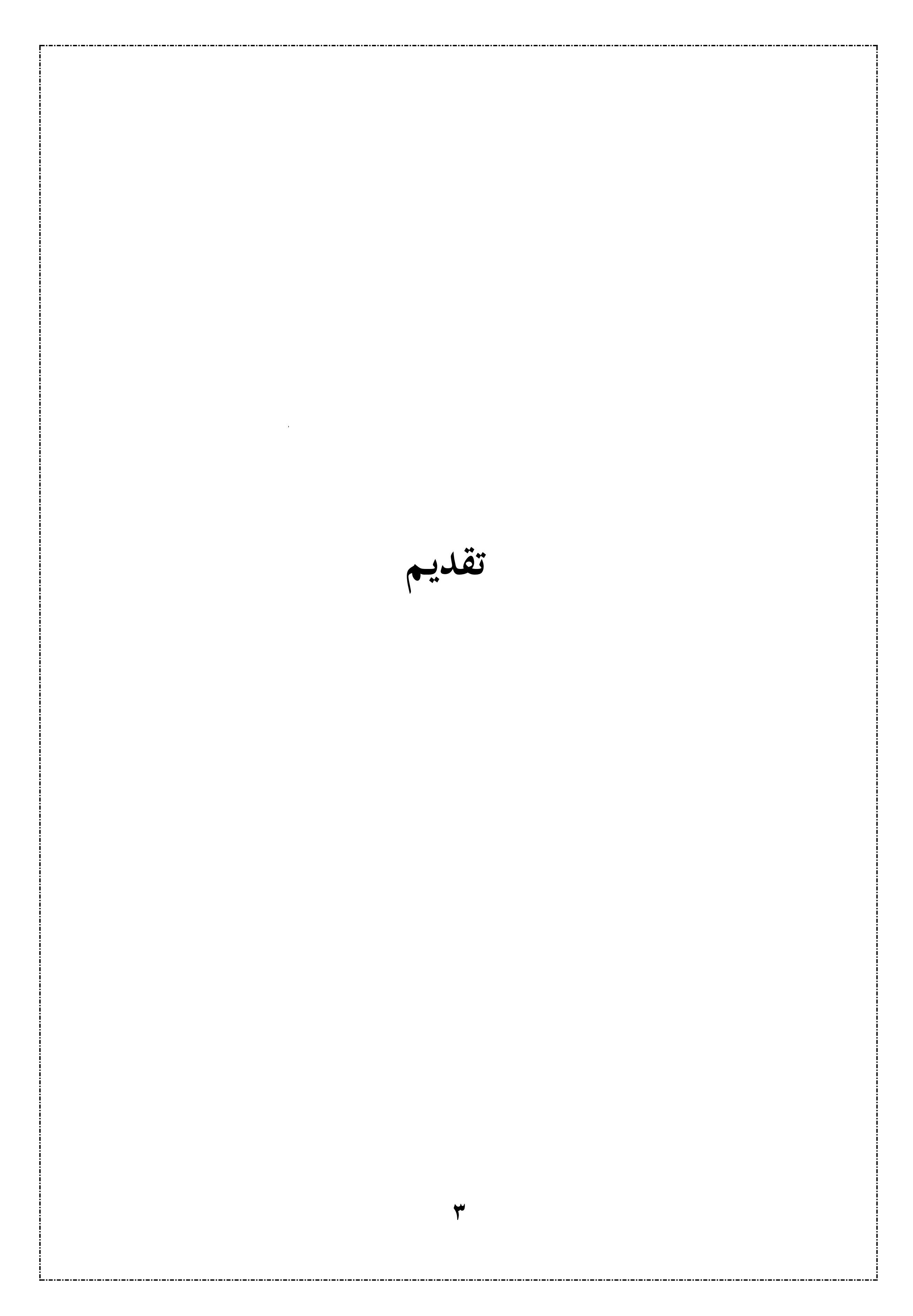
فنون الأدب العربي
الشعر

رؤية نقدية

إعداد
الدكتور / صالح عطية صالح مطر

مكتبة الآداب
٤٢ميدان الأوبرا-القاهرة ت٣٩٠٠٨٦٨

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م



تقديم

يتخصص موضوع هذه الدراسة في فنون الادب العربي (الشعر)، وهي ما تشغل حيزا كبيرا في ترثنا الأدبي ، ودارت حولها جهود نقدية متنوعة مع بدايات النقد العربي ، واستمرت حركة الفنون بشكليها الإبداعي والنقدي حتي بدايات حركة الإحياء في العصر الحاضر عند أحمد شوقي وحافظ إبراهيم ؛ ومن هنا انبثق موضوع هذه الدراسة " **فنون الأدب العربي٠٠٠ رؤية نقدية٠ الشعر** " في الشعر مع وضع دراسة أخري عن النثر ٠

ونظرا لما تطرحه هذه الدراسة من أبعاد :

أ–إبداعية تتمثل في رصد العديد من المختارات الأدبية التي عجت بها كتب التراث وهي تصنف فنون الأدب ، تظهر في كتب المتأدبين ، وتأصيلهم لهذ الفنون وذكر مختارات منها ٠

ب– نقدية تتمثل في التعليق على هذه الفنون بالآراء النقدية العديدة والمتناثرة في كتب النقاد ٠

ج – جهود إبداعية تترسم خطى القدماء في المدرسة الإحيائية عند أحمد شوقي وحافظ إبراهيم ، أو تقدم تطويرا لهذه الفنون عند مدرسة الشعر الجديد ٠

٠٠٠فإن هذه الدراسة ستحاول التعرف على بعض فنون الأدب – وهنا التركيز على الشعر – من خلال تطوره ، و معالجة القدماء النقدية ، مع التمثيل لكل فن بعلم من الأعلام من القديم أو من الحديث ٠

وتحاول هذه الدراسة أن تنهج نهجا شموليا ، يستفيد من المناهج التاريخية والاجتماعية والأسلوبية وغيرها ، بحيث يمكن الإلمام بالفن الأدبي من نواح عديدة تساهم في إنارته وتقريبه ، مع التطبيق على نصوص مختارة تتضح فيها السمات الأسلوبية والموضوعية والفنية لكل فن أدبي ٠

تشير دلالة كلمة فن إلى النوع والضرب من الأنواع في كل شئ ، كما يصرح ابن فارس : " الفاء والنون أصلان ، يدل أحدهما على تعنية ، والآخر على ضرب من الضروب في الأشياء كلها " (١) ، بينما يتسع مدلول الفن في العصر الحاضر ليتناول " ١- جملة القواعد الخاصة بحرفة أوصناعة ، ٢- جملة الوسائل التي يتوصل بها الذكاء البشري إلى نتائج تطبيقية (التقنية المتطورة) ٠٠" (٢) ، أو " هو جملة الوسائل التي يستعملها النسان لغثارة الشعور بالجمال " (٣) ، فالفن نوع من أنواع الجهد الإنساني ، واصطلاحا عاما وسائل وأنواع للجهد الغنساني ٠

وقد تردد في كتب النقد الأدبي القديم مصطلح الفن متعلقا بالشعر أي علاقة المصطلح بالأدب عند ابن سلام الجمحي في قوله : "وقال أصحاب الأعشى : هو أكثرهم عروضا ، وأذهبهم في فنون الشعر ، وأكثرهم طويلة جيدة ، وأكثرهم مدحا وهجاء وفخرا ووصفا ، كل ذلك عنده " (٤) ، وفي قوله "وكان لكثير في التشبيب نصيب وافر ٠٠وله فنون الشعر ما ليس لجميل " (٥) ، وهي تعني ضروب وأنواع وأغراض و معاني الشعر ٠من مدح وهجاء ورثاء وفخر وغزل وغرها ٠٠

ويقرن قدامة بن جعفر بين الفنون والمعاني على سبيل الترادف في قوله : " ٠٠ومع ما قدمته فإني لما كنت آخذا في معنى لم يسبق إليه من يضع لمعانيه وفنونه المستنبطة أسماء تدل عليه ٠٠ " (٦) ؛ ومن هنا يتحدث عن أغرض الشعر وفنونه تحت عنوان " باب المعاني الدال عليها الشعر " (٧) ٠

ومعنى ذلك أن فنون الشعر هي معانيه هي أغراضه المتعددة والمتنوعة من مدح وهجاء ورثاء ونسيب وغزل وغيرها ٠

وفى تراثنا العربى بشقيه : الشعر والنثر يمكن إطلاق لفظ الفن على أغراض الشعر المدح والفخر والرثاء والغزل والهجاء والعتاب والاعتذار والوصف والحماسة والحكمة

الشعر القصصي وشعر الفكاهة والمرح والمجون وشعر الألغاز ،كما يطلق على فنون النثر الرسائل الاخوانية والسلطانية والأدبية والمقامات والمفاخرات والحوادث الجارية ورسائل الصيد وعتاب الزواج والاجازات العلمية ومقدمات
الكتب والتقريظ والتهذيب والتمحيص (٨) ٠
وقد تناول فنون الشعر كل من المتأدبين والنقاد ، فقد عالج المتأدبون فنون الشعر من عدة زوايا : منها حصر هذه الأغراض والعلاقات بينها والاستشهاد على كل منها وجمع مختارات منها ، وذلك في كتب الحماسات التي صنفت مختاراتها موضوعيا حسب فنون الأدب وهي :

١-ديوان الحماسة لأبي تمام : حبيب بن أوس الطائي (ت٢٣١هـ) (٩) ٠
٢-الحماسة للبحتري : الوليد بن عبيد الطائي (ت٢٨٤هـ) (١٠) ٠
٣- حماسة الخالدين : أبي بكر محمد بن هاشم (٣٨٠هـ) ، أبي عثمان سعيد بن هاشم (ت٣٩١هـ) (١١) ٠
٤-الحماسة لأبي هلال العسكري :
٥-الحماسة للأعلم الشنتمري : أبو الحجاج يوسف بن سليمان (ت٤٧٦هـ)
٦- الحماسة الشجرية لابن الشجري :أبو السعادات هبة الله بن علي بن حمزة (ت٥٤٢هـ) (١٢)
٧- الحماسة لعلي بن الحسن المعروف بشميم الحلي ٠
٨-الحماسة البصرية للبصري : علي بن الفرج بن الحسن البصري (ت ٦٥٩هـ) (١٣)
٩- حماسة العبيدي للعبيدي : محمد بن عد الرحمن بن عبد المجيد العبيدي (ت٧٠٢هـ) (١٤) ٠
١٠-حماسة الظرفاء للزوزني : عبد الله بن محمد بن يوسف (ت٤٣١هـ) (١٥) ٠
١١-الحماسة المغربية للبياسي : يوسف بن محمد بن إبراهيم الأنصاري البياسي (ت ٦٥٣هـ)

وقد اختلف المتأدبون فى عدد هذه الفنون والأغراض فقد عدها أبو تمام عشـــرة أنواع هى :-

١- باب الحماسة

٢- باب المراثى

٣- باب الأدب

٤- باب النسيب

٥- باب الهجاء

٦- باب المدح والأضياف

٧- باب الصفات

٨- باب السير والنعاس

٩- باب الملح

١٠- باب مذمة النساء

ولا يعد الأدب والســير والنعاس ومذمة النســاء فى فنون الأدب ، وأرجع الدكتور عز الدين اسماعيل أبواب حماسة البحترى إلى أربعة أبواب وهى : ١- باب الحماسة و٢- باب الشباب و المشيب و٣-باب الأدب و٤-باب الرثاء فى أشعار النساء ، ويرى أن البحترى بذلك قد أســقط من حماســته كل أبواب حماســة أبى تمام عدا بابى الحماس والأدب وأنه يكون بهذا قد أسقط فنونا رئيسية فى الشعر العربى منذ القدم كالنسيب والفخر والمدح والهجاء والوصف (١٦) ٠

واتبع ابن الشجري تصنيف أبي تمام ، غير أنه أسقط منه باب النعاس ، فجاءت على النحو التالي : باب الحماســة وباب المراثى وباب الأدب وباب النســيب وباب الهجاء وباب المدح والأضياف وباب الصفات وباب السير والنعاس وباب الملح وباب مذمة النساء (١٧) ٠

وقسم البصري حماسته إلى اثنى عشر بابا هي : باب الحماسة ، وباب المديح والتقريظ ، وباب الرثاء والتأبين ، وباب الأدب ، وباب النسيب والغزل ،وباب الأضياف ، وباب الهجاء ، وباب مذمة النساء ، وباب الصفات والنعوت ، وباب السير والنعاس ، وباب الملح والمجون ، وباب ما جاء في أكاذيبهم وخرافاتهم ، وباب ملح الترقيص ، وباب الإنابة والزهد (١٨) ٠

وقسم العبيدي حماسته على أربعة عشر بابا : ١- في الحماسة والفخر ، ٢- في الأدب والحكم والأمثال ، ٣-في النسيب ، ٤- في المدح الاستجداء والاستعطاف والتقاضي ، ٥- في المراثي ، ٦- في الهجاء ٧- في الإخوانيات ٨- في التهاني ، ٩- في الاعتذار ، ١٠- في الصفات ، ١١- في المعاتبات والشكاية من حوادث الزمان والصبر عليها ، ١٢- في الملح ، ١٣- في الأشياء المتفرقة ، ١٤- في الدعاء (١٩) ٠

ويمكن استنتاج اجماع هؤلاء المتأدبين على أنواع بعينها هي : ١- الحماسة والفخر ، ٢- الأدب والحكم والأمثال ، ٣- النسيب ، ٤- المدح ، ٥- المراثي ، ٦- الهجاء ، ٧- الاعتذار ٠

كما تناولها نقاد الأدب ودارسوه بالتحديد ، وتوجيه النقد للشعراء في تناولها مشكلين نظرية نقية متكاملة حول هذه الفنون ، فقد حددها ثعلب (ت٢٩١ هـ) فى سبعة فنون هى : مدح وهجاء ومراث واعتذار وتشبيب وتشبيه واقتصاص أخبار (٢٠) ، ويمكن اخراج التشبيه واقتصاص الأخبار فى هذه الفنون فيصبح خمسة أنواع .

وحصـرها قدامة بن جعفر (ت ٣٢٧ هــــ) فى معاني دل عليها الشـعر أو نعوت أهم أغراض الشـعراء في المعاني من حيث الإجادة والعيوب وهي : المديح والهجاء والمراثي والتشبيه والوصف والنسيب ، وهى خمسة رئيسية (٢١) .

وكذلك حصرها أبو هلال العسكرى (ت ٣٩٥ هـ) فى أربعة فنون وأغراض هى المدح والهجاء والوصـف والنسـيب ؛ مع اعترافه بأن أغراض الشـعر لا يبلغها الحصـر قائلا " ولما كانت أغراض الشـعراء كثيرة ومعانيهم متشـعبة جمة لا يبلغها إلا الاحصـاء كان من الوجه أن نذكر ما هو أكثر استعمالا ، وأطول مدارسة له وهو المدح والهجاء والوصـف والنسيب والمراثى والفخر ٠٠ وقد ذكرت قبل هذا المديح والهجاء وما ينبغي استعماله فيهما ٠٠ثم ذكرت الآن الوصـف والنسـيب ٠٠وتركت المراثي والفخر لأنهما داخلان في المديح " (٢٢) ٠

ووسـع ابن رشـيق القيروانى (ت ٤٥٦ هــــ) من أغراض الشعر ، وجعلها فى النسيب والمديح والافتخار والرثاء والاقتصـــاء والاســـتنجاز والعتاب والوعيد والانذار والهجاء والاعتذار (٢٣) ٠

وحصـــرها حازم القرطاجنى فى : المدح والنســـيب والرثاء والفخر والاعتذار والمعاتبات والاســـتعطافات والهجاء والتهانى (٢٤)، وأرجع هذه الفروع إلى أصـــول أربعة : مدح ونسيب وهجاء ورثاء (٢٥) ٠

ويلاحظ أن هناك أغراضـــا متفق عليها بين المتأدبين والنقاد وهى المدح والهجاء والرثاء والغزل والفخر والوصـف وأغراضـا أخرى يذكرها البعض ويتركها البعض الآخر كالعتاب والاعتذار والوعيد والتهانى . مما يدل على أن الأكثر اهتماما حتى عند الشـــعراء هى الأغراض الأولى من حيث الشيوع والانتشار بين الشعراء ٠

وقد حاول المتأدبون والنقاد فلســفة هذه الأغراض والتقريب فيما بينها والتماس مابينها من مقاربات أوتعارضـات ، فأبو هلال العسـكرى مثلا يحاول التقريب فيما بينها فيقول " ٠٠٠ إن الفخر هو مدحك نفســك بالطهارة والعفاف والحلم والعلم والحســب وما يجرى مجرى ذلك ٠٠ والمرثية مديح الميت والفرق بينهما وبين المديح ٠٠ أن تقول كان كذا وكذا وتقول فى المدح هوكذا وأنت كذا " (٢٢) ٠

وأدار قدامة المدح والهجاء والرثاء على المعانى العقلية التى يوصـــف بها الرجال وهى العقل والشجاعة والعدل والعفة (٢٦)

وهى فى المدح والرثاء وعكسـها فى الهجاء وما يقابلها فى حق النسـاء فى النسـيب ويعنى ذلك أن :

المدح : وصف الرجل الحى بصفات العقل والشجاعة والعدل والعفة

الهجاء : وصف الرجل الحى بعكس صفات العقل والشجاعة والعدل والعفة

الرثاء : وصف الرجل الميت بصفات المدح

الغزل : وصف المرأة بصفات الحسية والمعنوية اللائقة

الفخر : وصف المرء نفسه بصفات المدح

الوصف : وصف الأشياء

وكأن هذه الأغراض دائرة متكاملة قطبها الشـاعر ومحيطها الممدوح أو المهجو أو المرثو أو المحبوب ومع كل تتحدد علاقة كالإعجاب والإزدراء والحزن والاسـتعطاف وغيرها ، ولم ينس النقاد إبراز صفات الحسن والقبح فى كل هذه الأغراض والفنون.

وفى النقد العربى الحديث أصبحت دراسة الأغراض ضـمن نظرية جديدة الفنون الأدبية اهتمت بها :

نظرية الفنون الأدبية :

تدرس هذه النظرية الفن الأدبى دراسة تاريخية استقرائية فى كل مراحله الزمنية وأقطاره مع المشهورين والمغمورين بطريقة استقرائية ، وتتيح لنا تتبع الفنون الأدبية (الرثاء – الهجاء – الغزل ٠٠) مع الزمن ودورانها مع العصور ، وتنتقل بنا عبر الماضى ؛ فتتناول فنا من فنون الأدب أو ظاهرة من ظواهره منذ نشأتها الأولى ثم تمض بها فى مراحلها المختلفة فتلمح رقيها وانحطاطها وتسجل استقامتها والتوائها وتدرك غلوها واعتدالها وتبين عن مراحل تطورها التى مرت بها وتكشف هذه الروافد التى صبت فيها فأغنتها وهذه القنوات التى اشتقت منها ففرعتها (٢٧) ٠

والفن الأدبى في النقد الحديث هو وسيلة لتصنيبف الموضوع ، فهو " الإطار المحدد الذي يعالج الموضوع ضمنه من حيث الأصول والأغراض والخصائص المميزة ، مثال ذلك : أن الفن المسرحى يحول الأثر الأدبى إلى تمثيلية فى حين أن هذا الأثر إذا عولج حسب الفن الخطابى برز متقيدا بأصول الخطبة وشروطها ٠ فالاتفا على وجود الفنون الأدبية هو وسيلة لتصنيف الموضوعات ، وطرائق التعبير عنها " (٢٨) ٠

والأدب ينقسم إلى قسمبن : هما النثر والشعر ، والأنواع الأدبية هنا مرتبطة بالموضوع وطريقة التعبير :

ففى النثر تتنوع إلى : الخطابة ، التاريخ ، المسرح ، الرواية ، الرحلة ، السيرة ، الرسالة ، المقالة ، الخ ٠٠

وفى الشعر تتنوع إلى : الفن الغنائى ، الفن الملحمى ، الفن المسرحى (نثرا وشعرا) ، الفن التعليمى ، الخ ٠٠

وقد تشمل الفنون الأدبية توسعاً فى المدلول الأغراض والأشكال الأدبية مثل : الوصف والرثاء والفخر والمدح والمقامة والموشح .. إلخ (٢٩) ..

وليس عندالعرب إلا الشعر الغنائى ، وفنون الشعر فيه هى أغراضه :كالحكمة والحماسة والرثاء والعتاب والغزل والفخر وشعر الفكاهة والمزاح والمجون والشعر القصصى والمدح والهجاء والوصف و الاعتذار وشعر الالغاز (٣٠) ٠

وتتيح هذه النظرية دراسة الفن الأدبى فى تطوره الزمانى أى تاريخه وتنقله المكانى .أى ضمن العامل الإقليمى أى تمكن من الجمع بين العاملين والزمانى والمكان ، وتصل الدارس بالنصوص الأدبية صلة حية وتمكنه من التمرس بالنصوص ومعاناتها والتقلب معها

فترهف الذوق وتشحذ الذهن ، وتمكن الدارس بطريقتها الاستقرائية من التنقل من دراسة المشهورين إلى دراسة المغمورين من الشعراء وتقيم الموازنة الأدبية بين النماذج المختلفة والإساليب المختلفة عند الأدباء فى هذا الفن ؛ فتكشف جوانب الاتفاق والاختلاف والخصائص العميقة فى هذا الفن الادبى أو ذلك وتعلمنا من النظرية الدقة والعمق والبعد عن الاحكام السطحية الساذجة ٠

غير أن ما يؤخذ على هذه النظرية أنها جزأت دراسة الشاعر الواحد بين الفنون المختلفة ، بينما نتاجه وحدة كاملة ، وأهملت صاحب النص الادبى ويصعب تطبيقها على الشعر العربى في حالة الجمع بين الأغراض فى قصيدة واحدة ولم يؤمن إلا بوحدة الوزن والقافية ، فلا نظفر بالموضوع العربى ويمكن القول : إن هذه النظرية تحليل يتعذر معه التركيب .

وتعد الفنون الشعرية إبداعا مشتركا أو رسالة بين كل من المبدع والمتلقى ، يحاو ل المبدع إظهار براعته في المدح والرثاء والهجاء ٠٠ بينما يتدخل المتلقي ضمنيا في إبداعه ممارسا إكراها وضغطا لغويا وذهنيا ، والمبدع حياله يلجأ إلى الاحتيال لإرضائه ٠٠ كما يرى أحد الباحثين انطلاقا من النظرية التأويلية "

إن (المتقبل الضمني) يحتل داخل النص مكانة رفيعة جعلت المبدعين في سعي مستمر للاستجابة لما يمليه عليهم ويفكرون باستمرار في سياسته و(الاحتيال له) حتى يؤدي كلامهم وظيفة – وأخطر ما في الأمر أن هذه الوظيفة أضحت عندهم محددة للبنية ، إذ فرض المتقبل الضمني عناصر لغوية ودلالية وأسلوبية توجه (المتقبل الصريح) إلى الفهم وتقوده إلى المداخل المؤدية إلى (معنى ما)٠٠٠" (٣١) ٠

وقد ساهم فى التنظير للفنون الأدبية ، وضمن هذه النظرية عديد من الدراسات ، فقد قدم شوقى ضيف عدة دراسات عن الرثاء ، المقامة ، النقد والترجمة الشخصية والرحلات (٣٢) ، وهى دراسات تتبعت كل فن من هذه الفنون تطوراً تاريخياً وفنياً ومكانياً .

وقدم سامى الدهان دراسات عن الغزل ، الوصف ، المديح ، والهجاء (٣٣) .

وتتبع فيها هذه الفنون تاريخياً وفنياً وإقليمياً ، وكذلك دراسات كل من حنا الفاخورى عن الفخر والحماسة ، وعن الحكم والأمثال (٣٤) ، ودراسات ناصف اليازجى عن مجموع الأدب فى فنون الأدب (٣٥) وغيرها ٠

وتحاول هذه الدراسة أن تتناول فنون الأدب العربى من خلال ثلاثة محاور :. التعرف على الفن وتطوره ، التعرف على العلم البارز ، ودراسه تحليلية لإحدى قصائد .

هوامش التقديم :

١- ابن فارس : أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت٣٩٥هـ) : معجم مقاييس اللغة ، تحقيق وضبط : عبد السلام محمد هارون بيروت دار الجيل ١٩٩١م ط١ ج٤ ص ٤٣٥

٢- جبور عبد النور : المعجم الأدبي : بيروت دار العلم للملايين ١٩٨٤ص١٩٧

٣- محمد عزام : مصطلحات نقدية من التراث الأدبي العربي ،دمشق وزارة الثقافة ١٩٩٥م٣٩٠

٤-ابن سلام الجمحي (ت٢٣١هـ) : طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود محمد شاكر ، القاهرة مكتبة الخانجي ١٩٧٤م ج١ ص٦٥

٥- طبقات فحول الشعراء ج ٢ ص ٥٤٥

٦- قدامة بن جعفر : أبي الفرج (٣٣٧هـ) : نقد الشعر ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ،القاهرة مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٩م ط١ ص ٦٨

٧- نقد الشعر ص ٩١ وما بعدها

٨- انظر فى ذلك : أحمد أحمد بدوى : أسس النقد الأدبى عند العرب — القاهرة – دار نهضة مصر – ١٩٧٩- ص ١٣٤ – ٢٩١ ، ص ٥٧٣ – ٥٩٣

٩- أبو تمام : حبيب بن أوس الطائي (ت٢٣١هـــ) : ديوان الحماسة : تحقيق : عبد المنعم أحمد صـــالح ، القاهرة الهيئة العامة لقصـــور الثقافة ١٩٩٦م ١٠- البحتري :الوليد بن عبيد الطائي (ت٢٨٤هـــ) : الحماسة للبحتري : تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعي ،بيروت ١٩١٠م

١١- الخالديان : أبي بكر محمد بن هاشم (٣٨٠هـــ) ، أبي عثمان سعيد بن هاشم (ت٣٩١هـــ) : حماسة الخالديين : الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضـــرمين ،تحقيق : الســـيد محمد يوســـف القاهرة الهيئة العامة لقصـــور الثقافة ٢٠٠٢م

١٢- ابن الشـجري :أبو السـعادات هبة الله بن علي بن حمزة (ت٥٤٢هـــ): الحماسـة الشجرية تحقيق : عبد المعين الملوحي وأسماء الحمصيدمشق وزارة الثقافة ١٩٧٠م جزآن

١٣- البصري : علي بن الفرج بن الحسن البصري (ت ٦٥٩ه) : الحماسة البصرية : تحقيق مختار الدين أحمد ، الهند حيدر آباد الدكن دائرة المعارف العثمانية ١٩٦٢م جزآن

١٤- انظر : المصادر الأدبية اللغوية فى التراث العربى – عز الدين اسماعيل – القاهرة – دار المعارف ١٩٨٢- ط٢- ص ١٢٢-١٢٥

١٥- الزوزني : عبد الله بن محمد بن يوسف (ت٤٣١هـ) : حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء . تحقيق : محمد جبار المعيبد بغداد وزارة الثقافة والفنون ، دار الحري للطباعة ١٩٧٣م/١٩٧٨م.

١٦- المصادر الأدبية اللغوية فى التراث العربى ص ٩٩ – ١٠٠

١٧- المصادر الأدبية اللغوية١٠٦

١٨- المصادر الأدبية اللغوية١١٦

١٩- المصادر الأدبية اللغوية ١٢٤

٢٠- ثعلب : أبى العباس أحمد ثعلب (ت ٢٩١ هـ): قواعد الشعر شرح وتعليق . محمد عبد المنعم خفاجة . القاهرة مصطفى الحلبى ١٩٤٨ ط١ ص ٢٨ – ٣٠

٢١- قدامة بن جعفر (٣٣٧هـ) أبي الفرج : نقد الشعر . تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي .القاهرة مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٩م ط١ ص ٩١

٢٢- أبى هلال العسكرى (٣٩٥ هـ) : كتاب الصناعتين .تحقيق : مفيد قميحه – دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٨١ – ط ١- ص ١٤٨

٢٣- ابن رشيق القيروانى :أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت٤٥٦ هـ) : العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده .تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – بيروت دار الجيل – ١٩٨١ م ط ٥ جزآن ج ٢ ص ١١٣ – ١٨٠

٢٤- حازم القرطاجنى(ت٦٨٤ هـ) أبي الحسن حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء . تحقيق : محمد الحبيب بن الخوجة – بيروت دار الغرب الاسلامى ١٩٨٦ ط ٣ ص ٣٤٩ – ٣٥٣

٢٥- نفسه ٣٤٩

٢٦- نقد الشعر ص ٩٦

٢٧- عدنان عبيد العلي : منهجية تاريخ الأدب بين الأصــالة والتجديد : مجلة البيان الكويتية عدد ٢٣٣أغسطس /آب ١٩٨٥م / ذو القعدة ١٤٠٥هـ ص٧٣

٢٨- شكرى فيصل : مناهج الدراسة الأدبية . بيروت دار العلم للملايين ١٩٨٦م ص٧٥

٢٩- المعجم الأدبي ص١٠٣-٣٠٣

٣٠- أسس النقد الأدبي ص ١٣٤ – ٣٩٠

٣١-شكري المبخوت : المتقبل الضمني في التراث العربي ٠مقال بمجلة الحياة الثقافية تونس عدد ٥٢ عام ١٩٨٩م ص٥٧

٣٢- مناهج الدراسة الأدبية ص ٧٥- ٨٧

٣٣- شوقي ضيف : الرثاء : القاهرة دار المعارف ١٩٨٧م

المقامة القاهرة دار المعارف

الرحلات القاهرة دار المعارفم

٣٤-سامي الدهان : الغزل القاهرة دار المعارف ١٩٨١م

الوصف القاهرة دار المعارف ١٩٨١م

الهجاء القاهرة دار المعارف ١٩٥٨م

المدح القاهرة دار المعارف

٣٥-حنا الفاخوري : الفخر والحماسة القاهرة دار المعارف ١٩٩٢م

الحكم والأمثال القاهرة دار المعارف

٣٥- ناصيف اليازجي :كتاب مجموع الأدب في فنون الأدب بيروت ١٩٣٧م ط٨

الفصل الأول

المدح

تعنى كلمة المدح حسن الثناء ، أو وصف محاسن الشخص بكلام جميل ، كما يقول صاحب اللسان " المدح : نقيض الهجاء وهو حسن الثناء " (١) ، وكما يقول ابن فارس : " الميم والدال والحاء أصل صحيح يدل على وصف محاسن بكلام جميل ومدحه يمدحه مدحاً : أحسن عليه الثناء . " (٢) ٠

ويعنى المدح عند المتأدبين والنقاد نفس المعنى اللغوى وهو ذكر المحاسن فى الممدوح والفضائل التى يتحلى بها والمدح عندهم غرض وفن شعري عريق في كل عصور الادب العربي ، يختص بهذا الثناء ، ويتوجه به الشاعر إلى ممدوح معين (٣) وقد توخى بعض النقاد العرب وضع ضوابط للمدح تتناول ماهيته وحدوده وسماته الموضوعية والأسلوبية ، ومن هذه الضوابط :

الأولى : التركيز على الفضائل المعنوية : من هذه الضوابط فى المدح التركيز على موضوع المدح ، وهو التركيز على الفضائل المعنوية وهى فضائل : العقل ، الشجاعة ، والعدل والعفة ، وبلوغ الجودة فى ذلك ويتاح فى المبالغة كى يقول مفسرا ذلك " إنه لما كانت فضائل الناس ، من حيث إنهم ناس ، لا من طريق ما هم مشركون فيه مع سائر الحيوان ، على ما عليه أهل الألباب ، من الاتفاق في ذلك ، إنما هي العقل والشجاعة والعدل والعفة ؛ كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيبا ، والمادح بغيرها مخطئا ٠ وقد يجوز فى ذلك أن يقصد الشاعر للمدح منها بالبعض والاغراق فيه دون البعض مثل أن يصف الشاعر انساناً بالجود الذى هو أحد أقسام العدل وحده فيغرق فيه ، ويفتن فى معانيه أو بالنجدة فقط ، فيعمل فيها مثل ذلك ، أو بهما ، أو يقتصر عليها دون غيرها فلا يسمى مخطئاً ، لإصابته في مدح الغنسان ببعض فضائله ، لكن يسمى مقصرا عن استعمال جميع المدح ، فقد وجب القياس المصيب من الشعراء من مدح الرجال هذه الخلال ، لا بغيرها " (٤) ٠

ولا يقف الأمر عند هذا بل تقسم هذه الصفات الأربع إلى صفات أقل " من أقسام العقل ثقافة المعرفة ، والحياء ، والبيان ، والسياسة ، والكفاية ،والصدع بالحجة ، والعلم والحلم من سفاهة الجهلة ٠٠٠ومن أقسام العفة القناعة وقلة الشره ، وطهارة الإزار ٠٠٠ ومن أقسام الشجاعة الحماية ، والدفاع ، والأخذ بالثأر ، والنكاية في العدو والمهابة ، وقتل الأقران ، والسير في المهامه الموحشة ٠٠٠ومن أقسام العدل السماحة ٠٠والانظلام ، والتبرع بالنائل ، وإجابة السائل وقري الاضياف " (٥) ٠

ويمكن أن تتركب صفتان أو أكثر ، وهو ستة أقسام : "

ما يحدث من تركيب العقل مع الالشجاعة فالصبر على الملمات ، ونوازل الخطوب ، والوفاء بالإيعاد ٠

وعن تركيب العقل مع السخاء فانجاز الوعد وما أشبه ذلك٠

وعن تركيب العقل والعفة فالرغبة عن المسألة ، والاقتصار على أدني معيشة وما أشبه ذلك ٠

وعن تركيب مع السخاء التلاف ، والاخلاف ، وما أشبه ذلك ٠

وعن تركيب الشجاعة مع العفة : إنكار الفواحش ، والغيرة على الحرم ٠

وعن السخاء مع العفة الإسعاف بالفوت،والإيثار على النفس ، وما شاكل ذلك " (٦) .

فالمدح يقوم على عدد من الصفات المعنوية ، والتي تمثل قيما أخلاقية متأصلة عند العرب في بيئتهم الاجتماعية ٠ على الرغم من إجماع كثير من الباحثين على أن قدامة قد أفاد في دراسته لفن المديح من الفلسفة اليونانية ، ومن فكر أرسطو بوجه خاص (٧) ٠

ثانيا : الصدق : و من هذه الضوابط الصدق فى المدح فلا يمدح الرجل الا بما فيه فيما يرويه دامة بن جعفر عن قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى اعجابه بزهير " ما أحسن ما قال عمر بن الخطاب فى وصف زهير حيث قال : إنه لم يكن يمدح الرجل إلا بما يكون للرجال ، فانه فى هذا القول إذا فهم وعمل به منفعه عامة ، وهى العلم بأنه إذا كان الواجب أن لا يمدح الرجال إلا بما يكون لهم وفيهم ، فكذا يجب أن لا يمدح شىء غيره إلا بما يكون له وفيه ، وبما يليق به أولا ينافره " (٨) ، كما يقول حازم القرطاجى " ويجب الا يمدح رجل الا بالأوصاف التى تليق به " (٩) .

ثالثا : التناسب : ومن هذه الضوابط مراعاة التناسب فى المدح ومراعاة طبقات الممدوحين إذا كان الممدوحين ملوكاً أو من الوظائف الكبيرة فى الدولة أو أقل من ذلك كما يشير الى ذلك حازم فى قوله : " فمن ذلك طريقة المدح ويجب منها السمو بكل طبقة من الممدوحين لها من الأوصاف وأعطاء كل حقه من ذلك " (٩) .

وقد رأى القدماء أن طريقة الشاعر فى مدح الملك أن يسلك طريقة الإيضاح والإشادة بذكره للمدوح ، وأن يجعل معاينة جزيله وألفاظه نقيه غير مبتذلة سوقية ويجتنب – مع ذلك التقصير والتجاوز فأن للملك سامه وضجراً ربما عاب من أجلها مالا يعاب ويحرم من لا يريد حرمانه .

..وينصح النقاد بالمبالغة والإطناب في مدح الملوك ، والإقلال في مدح السوقة كما يقول ابن رشيق : " وإذا كان الممدوح ملكاً لم يبال الشاعر كيف قال فيه ولا كيف أطنب وذلك محمود وسواه المذموم ، وإن كان سوقه فإياك التجاوز به خطته فإنه متى تجاوز به خطته كان كمن نقصه منها" (١٠) ٠

وفى مدح الجميع يلتزم الإجادة والدقة فى المخاطبة ، ووصف كل شخص بما يليق به ، كما يقول ابن رشيق : " وكذلك لا يجب أن يقصر عما يستحق ولا أن يعطيه صفة غيره ؛ فيصف الكاتب بالشجاعة والقاضى بالحكمة والمهابة " (١٠) ٠

رابعا: المراعاة الأسلوبية : وينصح النقاد الشعراء بمراعاة الأسلوب وطريقة الكتابة من الناحية الفنية في جذالة المعاني ورقيها ، ودقة الألفاظ والبعد عن الابتذال مع الإيضاح والبعد عن التقعر في الأسلوب كما يشير ابن رشيق : " وسبيل الشاعر – إذا مدح ملكا أن يسلك طريقة الإيضاح والإشادة بذكره للممدوح ، وأن يجعل معانيه جزلة ،وألفاظه نقية ، غير مبتذلة سوقية ، ويجتنب –مع ذلك – التقصير والتجاوز والتطويل ؛ فإن للملك سآمة وضجرا " (١١) ٠ ويضيف حازم ترابط التراكيب وسهولته في قوله : " ويجب أن تكون ألفاظ المديح ومعانيه جزلة مذهوبا بها مذهب الفخامة في المواضع التي يصلح بها ذلك ، وأن يكون نظمه متينا ، وأن تكون فيه مع ذلك عذوبة " (٩)٠

وقد مر المدح بتطور كبير منذ العصر الجاهلى إلى العصر الحاضر ، فقد بدأ المدح فى العصر الجاهلى متأخراً عن بقية الفنون الأخرى كالهجاء والغزل ٠٠على شكل أبيات من قبيل الشكر والحمد والعرفان الى صاحب الفضل كشكر طرفة بن العبد لقتادة الحنفى لأنه أغدق أموالاً على بنى ضبة عشيرة طرفه فى سنه جدباً ولم يكن للتكسب (١٢).

وبدأ التكسب بالمدح عندما مدح النابغة الذبيانى الملوك وقبل الصلة على الشعر ، وخضع للنعمان بن المنذر وكسب مالاً جسيماً ، ثم تكسب زهير بن أبى سلمى بالشعر من هرم بن سنان ، وتوسع الأعشى فجعل الشعر تجارة يتاجر بها عند الملوك واستشرى ذلك حتى وصل بالشعراء فاصبحوا يستجدون الملوك بشعرهم (١٣) ٠

ويلتحق شـــعر الاعتذار بالمدح ففى الاعتذار طلب للصـــفح والمغفرة والرجاء والأمل والمدح ، كاعتذاريات الذبيانى للنعمان بن المنذر ٠ ويرى الدكتور عبد العزيز بدوى أن فن الاعتذار سـابق على شـعر المدح ، وأنه تأسـس على يد عمرو بن قميئة الذى رسـم صـــورتين الأول للممدوح والثانية لنفســـه ، والمدوح غاضـــب قوي يوشـــك أن ينكل بالشـاعر شـر تنكيل ، والشـاعر في صـورة الضـعيف المظلوم الخائف ، يحاول بين هاتين الصـــــورتين أن يمد كل حبال النجاة حتى يرق له ممدوحه ٠٠فيذكر الوشـــــاة ويتهمهم ويحمل عليهم ، ويتنصل من الذنب ، وفداء الممدوح بأهله حتى يقبل اعتذاره (١٤) .

وفى الشعر الجاهلى استخدم الشاعر لسانه سيفاً لقبيلته يمدحها ويمدح شيوخها ويهجو عدوها ؛ فإذا ضـــاقت على الشـــاعر ســـبل العيش فى ظل قبيلته أو كانت له مطامع لتحقيق الترف واللذات خارج القبيلة ٠٠توجه بالمدح نحو الآخرين وهجاء أعداءهم ونوال رفدهم ؛ وذلك مســـتغلاً رغبة الناس فى المدح وخوفهم من الهجاء وكلاهما يخلد ويسير فى الآفاق في قوافي الشعر التي تحفظ وتتناقل هنا وهناك ويكون لها أثر اجتماعى فى حياة القبائل والآخرين (١٥) ٠

وفى العصر الاسلامى تحول الشعر الى مناصرة الدعوة الاسلامية عند الشعراء المسلمين مثل كعب بن زهير ، وحسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكان مدح الرسول صلى الله عليه وســـلم ومدح الأنصـــار والمهاجرين وســـيلة من وســـائل الدعوة والإنتصـــار للمسلمين ضـد هيمنة قريش والرد على شعرائها ، إلى جانب تناثر الرؤى الإسلامية في أشعارهم .

وفى العصـر الأموى توفرت عدة أمور ازدهر بفضـلها فن المدح ، منها ما يتعلق بظهور الأحزاب السـياسـية كالشـيعة والخوارج والزبيرين ، وكل يجند لدعوته الشـعر والشـعراء يمدحونهم وينالون عطاياهم ، ويدعون لحزبهم ، ومنها ما يتعلق بالخلفاء الأمويين الذين أغدقوا أموالاً طائلة على الشـــعر كالفرذدق وجرير والأخطل ، وكل شـــعراء هذه الأحزاب يسترزقون بالمدح عدا شعراء الخوارج ،

فلم يسترزقوا بالمدح ، واشتهر من شعراء الشيعة الكميت بن زيد الأسدى ، واشتهر من شــعراء الزبيريين عبد الله بن الفجاءة وعمران بن حطان ٠وعلى أيدى هؤلاء جميعاً تطورت قصيدة المدح العربية من صورتها القديمة التى كانت عليها فى العصر الجاهلى إلى صورة إسلامية جديدة مما أدخله هؤلاء على نسيجها الفنى من خيط إسلامية جذرية ٠٠ كانت تتلاحم تلاحماً قوياً مع خيوطها الجاهلية القديمة (١٦) .

وفى العصر العباسى توفرت عدة أمور أخرى استمر عليها شعر المدح منها وجود حزبين سـياسـين كبيرين هما العباسـيون الذين بيدهم الملك وحزب بنى عمومتهم من العلويين الذى يمثل حزب المعارضة ، وكان الشعراء يمدحون رجال الحزبين تقية ورغبة فى الكسب والمال من الخلفاء والأمراء والولاة سعياً وراء الثراء . وكذلك انقسام الدولة العباسية فى العصـر الثانى إلى دويلات ، ونتيجة لرغبة كل أمير لتحقيق العظمة والشـهرة ؛ فأغوى الشعراء بزيارته والإقامه عنده ومدحه ، وقدم للشعراء المال الوفير ؛ فرحل الشعراء إلى تلك الإمارات للمدح وتحقيق الكسـب ، بالاضـافة المنافسـة الجديدة بين فنى الشـعر والكتابة والتى مكنت الكتاب من تولى الوظائف العليا فى الدولة ، فصـــارو حكاماً ووزراء وقواداً وقضـاة ، ووجد هؤلاء فى الشـعر ومدح الشـعراء وسـيلة للشـهرة (١٧) ؛ فأغدقوا على المداحين الأموال ، ولعل من شـعراء هذا العصـر المتنبى والبحترى ، وكان المتنبي أكثرهم شهرة فى المدح ٠

وفى العصرين المملوكى والتركى كسدت صفة المدح وقل شعره لعدم تشـجيع الحكام له ؛ لأنهم مماليك وأتراك أعاجم لا إلمام لهم بالعربية ولا يحتاجون للشـــعر فى الشـــهرة والإذاعة وتوطيد الحكم ؛ فلم يجد الشـعراء عندهم المال والعطايا فانغمروا فى الأوسـاط الشعبية ، وظهر لذلك شعر المصاحبة والدعاية التى ظهرت فيه الروح المصرية (١٨) .

وفى العصـر الحديث تجدد شـعر المدح على يد حافظ ، شـوقى وغيرهم .وفيما يلى دراسة لإحدى قصائد حافظ إبراهيم يمدح فيها الشيخ محمد عبده .

ثانياً : قصيدة حافظ إبراهيم إلى الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده:

(قالها فى سفر له إلى بعض بلاد الوجه البحرى وكان مصاحباً له فى هذا السفر) (١٩)

١–صَدَفْتُ عن الأَهْواءِ والحُرُّ يَصْدفُ ... وأَنْصَفْتُ منْ نَفْسِى وذُو اللُّبِّ يَنْصِفُ

٢–صَحِبْتُ الهُدَى عشْرِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً ... فَقَرَّ يَقِينِى بَعْدَ ما كان يَرْجُفُ

٣–فَرُحْتُ وفى نَفْسِى من اليأْس صارمٌ ... وعُدْت وفى صَدْرى من الحلْم مُصْحَفُ

٤–وكنتُ كما كان ابنُ عمران ناشئًا ... وكان كمَنْ فى (سُورَة الكَهْف) يُوصَفُ

٥–كأنّ فؤادى إِبْرَةٌ قد تَمَغْنَطَتْ ... بحُبِّك أَنَّى حُرِّفَتْ عنكَ تعطفُ

٦–كأنّ يَراعِى فى مَديحِكَ ساجدٌ ... مَدامعُه من خَشْيَة الله تَذْرفُ

٧–كأنّكَ والآمالُ حوْلَكَ حُوَّمٌ ... نَميرٌ على عِطْفَيْه طَيرٌ تُرَفْرفُ

٨–وأَزْهَرَ فى طِرْاسى يَراعى وأَنْمُلي ... ولَفْظى فباتَ الطِرّسُ يجْنى ويقْطفُ

٩–وجَمَّعَ منْ أَنْوَار مَدْحِكَ طاقَةً ... يُطَالِعُها طَرْفُ الرَّبيعِ فَيُطْرَفُ

١٠–تَهَادَى بها الأَرْواحُ فى كلِّ سُحْرَةٍ ... وَتَمشى على وَجْه الرِّياضِ فَتَعْرُفُ

١١–إمامَ الهُدَى إِنِّى أَرَى القَوْمَ أَبْدَعُوا ... لهم بِدَعاً عنها الشَّرِيعَةُ تَعْزُفُ

١٢–رَأَوْا فى قُبُور المَيِّتِين حَيَاتَهُمْ ... فقامُوا إلى تِلْك القُبور وطَوَّفُوا

١٣–وباتُوا عليها جاثِمِينَ كأنَّهم ... على صَنَمٍ للجاهليّة عُكَّفُ

١٤– فأَشْرِقْ على تِلْكَ النُّفُوس لَعَلَّهَا ... تَرقُّ إذا أَشْرَفْتَ فيها وتَلْطُفُ

١٥– فَأَنْتَ بِهِمْ كالشَّمْس بالبَحْر إنَّها ... تَرُدُّ الأُجاجَ الملْحَ عَذْباً فيُرْشَفُ

١٦–كثيرُ الأَيادى حاضرُ الصَّفْح مُنْصفٌ ... كثيرُ الأعادى غائِبُ الحقْد مُسْعفُ

١٧– له كلَّ يوم فى رضَى الله مَوْقف ... وفى ساحة الإحْسان والبرِّ مَوْقفُ

١٨– تجلَّى (جَمال الدِّين) فى نُور وجْهه ... وأَشْرَقَ فى أَثْنَاءِ بُرْدَيْه (أحنَفُ)

١٩–رَأَيْتُكَ فى الإِفْتَاءِ لا تُغْضبُ الحجا ... كأنّك فى الإفْتاءِ والعلْمِ (يُوسُفُ)

٢٠– فأنتَ لها إنْ قام فى الشَّرق مُرْجفُ ... وأنتَ لها إنْ قامَ فى الغَرب مُرْجفُ

٢١–كَمَلْتَ كَمَالاً لو تَنَاوَلَ كُفْرَه ... لأَصبَحَ إيماناً به يُتَحَنَّفُ

معانى الكلمات :

١–صدفت : أعرضت وصددت ، الأهواء : جمع هوى ، وهو ميل النفس إلى الشئ خيرا أو شرا ، اللب : العقل

٢–يرجف : يضطرب ويشير بهذا البيت الى قصة سمعناها منه أن حافظا كان يظن بالأستاذ الامام أنه شاك فى العقيدة الدينية غير قائم بالأشعار الاسلامية من صلاة وصوم ونحوهما ، فلما صحبه فى هذا السفر واتصل به تلك المدة المذكورة كان يراه فى الليل يكثر الصلاة والتضرع الى الله تعالى مبالغاً فى كتمان ذلك عمن حوله ، فأحسن الشاعر اعتقاده بالأستاذ الإمام وأيقن أنه كان على خطأ فى ظنه الأول به ثم اهتدى وبدل شكه يقيناً .

٣–صارم : أمر شديد ، مصحف : مثل المصحف

٤–يشير إلى قصة نبى الله موسى الكليم مع الخضر عليهما السلام ، وإكثار موسى على الخضر فى الأسئلة ، وقد ذكر الله تعالى ذلك فى سورة الكهف .

٥–تمغطست : أصبحت ممغننطة كالمغناطيس ، تعطف : ترجع ، وهو يشبه قلبه مثل إبرة المغناطيس التي تنحرف نحو الشمال ،

٦–تذوق : تسيل .

٧– الحوم من الطيور التى تدور حول الماء . الواحد : حاتم . والنمير : الماء الناجع فى الرى . والعطفان : الحانيان .

٨– أزهر : أخرج الزهر أي مزهر . أنملي : أصابعي ، والطرس : الصحيفة التى يكتب فيها .

٩–الأنوار : جمع نور (بفتح النون) وهو الزهر . والطاقة : الحزمة من الزهر . ويطالعها طرف الربيع : أى تنظر إليها عينه فيطرف : أى يصاب بما يؤذيه ، يقال : طرف فلان ، إذا أصابها بشيء فدمعت ، وقد طرفت عينه (مبنياً للمجهول) فهى مطروقة ، يريد أن مدحه للأستاذ الإمام يفوق أزهار الربيع حسناً فاذا نظر إليه الربيع ارتد طرفه عنه حسيرا.

١٠–تَهادى : أى تتهادى ، والتهادى : المشى فى لين وتين : ويجوز أن يكون (هنا) . من الإهداء أى أن الرياح تحمل طيب هذه الطاقة ؛ فيهدى بعضها بعضاً به . السحرة . أول وقت السحر . وتعرف (بضم الراء) أى تصير ذات عرف (بفتح العين وسكون الراء) أى رائحة طيبة أى أن الريح تمر على الرياض حاملة طيب هذه الطاقة فتتعطر الرياض ٠

١١– أبدعوا : أحدثوا بدعا ، البدعة : ما استحدث في الدين والشريعة ، وتعزف (بضم الزاى وكسرها) تنصرف وتعرض .

١٢– الميتين : من مات من المحبوبين والأولياء ، وهو يشير إلى الطواف بهذه القبور ٠

١٣– جاثمون : ملازمون لها لم يبرحوها ، والصنم : تمثال كان يتخذ عند الجاهلين للعبادة ، والعكف : العاكفون ، من عكف على الشيء اذا لزمه وحبس نفسه عليه .

١٤–أشرق : أالإشراق هو الإنارة ، والمقصود : التأثير فيمن يعلمهم ، واؤلئك الذين لازموا هذه المقابر ٠

١٥– بهم : أى فيهم . ويشير إلى ما هو معروف من تبخر ماء البحر بحرارة الشمس وصيرورة هذا البخار سحابا ، ومطرا ، الأجاج : الماء الشديد الملوحة ، ويرشف أى يشرب وأصل الرشف : مص الماء بالشفتين .

١٦–الأيادى : النعم ، الصفح : التسامح ، وغائب الحقد : لا تحقد على أحد .

١٧– موقف : مظهر يبدو فيه ٠

١٨- تجلى : ظهر ، وجمال الدين : يشير إلى الأستاذ الممدوح الشيخ جمال الدين الأفغانى الفيلسوف المعروف ، ورد مصر فى زمن إسماعيل باشا ، وتلقى عليه العلم أذكياء الطلاب بالأزهر ، ومنهم الأستاذ الممدوح فكانوا دعاة النهضة الحديثة وهداتها ، برديه : كساء مخطط يلتحف به ٠ ويريد بالأحنف : الأحنف بن قيس التميمى وكان من سادات التابعين ، مشهور بالحلم . وأسلم فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ولم يصحبه وشهد بعض الفتوحات . وتوفى حوالى سنة سبع وستين .

١٩-الحجا : العقل ، يريد أن الأستاذ الإمام وفق بين الدين والعقل فى فتاويه ويوسف ، هو نبى الله يوسف الصديق عليه السلام ، ويشير إلى قوله تعالى فى سورة يوسف : (ولما بلغ أشده أتيناه حكماً وعلما) الأية .

٢٠- لها : أى لملة الإسلام ، والمرجف : الذى يخوض الأخبار السيئة على أن يوقع فى الناس الاضطراب من غير أن يصح عنده شىء منها .

٢١- يتحنف به : يشير إلى ما هو فى كلام الفرس من قوله : كل شىء يتناوله العليل يحول إلى علة، كذلك العكس ، فكل شىء يتناوله الصحيح يتحول إلى صحة والكامل لو تناول صار إيمانا ، وكان الأستاذ الإمام كثيراً ما يردد هذه العبارة ويريد الشاعر إن كمال الأستاذ الإمام لو تناول كفر هذا المرجف لصيره إيمانا .

التعليق

تضمنت القصيدة مضموناً صيغ فنيا على درجة من الجودة ، فعلى مستوى المضمون ... يتحدث الشاعر عن تجربة حية عاشها مع الإمام محمد عبده ، دخلها شاكاً متحيراً مصدقاً لما قيل عن الشيخ محمد عبده ، وخرج منها مطمئناً محباً مصدقاً للشيخ بل مادحا له بصفات تمثله زعيماً دينياً . وتبدأ هذه القصة بأن الشاعر يظن بالأستاذ الإمام محمد عبده أنه شاك فى عقيدته الدينية غير قائم بالشعائر الاسلامية من صلاة وصيام ونحوها ، فتصادف أن صحب الإمام فى سفر ، وكانت مدة السفر عشرين يوماً وليلة ؛ فرأى الشيخ الإمام يكثر الصلاة والصيام والخشوع والتضرع إلى الله تعالى مبالغاً فى كتمان ذلك عمن حوله ، فصحح الشاعر من اعتقاده عن الإمام وأيقن أنه كان مخطئاً فى حق الشيخ ، وتبدل شكه فى الشيخ إلى يقين جعله يحكى القصة ويمدح الشيخ بعدد من الصفات ؛ فوصفه بأنه مقصد الناس جميعاً ، كمن تتجمع حوله الطيور ، وأنه معقد آمالهم فى الإصلاح الاجتماعى ، وأنه الإمام الصادق الذى أحيا السنة ، وقاوم البدعة فى إقامة الأضرحة وزيارتها والطواف بها ، وقام الشيخ بالدعوة والوعى الدينى لإبعاد الناس عن هذا ، وأنه رجل كبير التسامح عادل منصف لا يحقد ؛ ورغم ذلك كثر أعاديه . وهو رجل خاشع خاضع تقى يعرف حق ربه كما يعرف حق الناس ، وبار عطوف يقدم الخير والبر للمحتاجين وأنه تعلم وتأدب فنال فكر جمال الدين الافغانى الشيخ العالم الفيلسوف الذى ورد مصر فى عهد الخديو اسماعيل ، كما تلقى علوم الشريعة فى الأزهر الشريف فهو رجل الفكر والشرع ، ويحسن الإفتاء ويحقق العدل ويبين الناس أمور دينهم ؛ وحق له أن يكون بذلك جامعاً للكمال الذى لو تناول الكفر لصيره ايماناً .

وهذه صور للمدح بالأوصاف النفسية والدينية وتبتعد عن الاوصاف التقليدية وهى أوصاف الجود والكرم والشجاعة والشهامة والنخوة . وتتفق فى رسم صورة لزعيم دينى اجتماعى إصلاحى كالإمام محمد عبده .

وقد تخصصت القصيدة فى فن المدح فقط مختلفة عن شعر الجاهلين فى تنوع موضوعات القصيدة مما وفر للقصيدة وحدة موضوعية .وواكب الشاعر هذه الوحدة الموضوعية ببناء فنى تتضافر فيه الألفاظ والتراكيب والموسيقى الشعرية والمعجم والمجاز والرؤية الواقعية .

* فمن ناحية الموسيقى : تنتمى القصيدة الى بحر الطويل وعروضه وضربه مقبوضان وأجزاؤه كالآتى :

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن   فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

صدفت عنل أهوا ء ولحر ريصدفو   وأنصف تمن نفسي وذل لب بينصفو

//ه/ //ه/ه/ه //ه/ه //ه//ه   //ه/ه //ه/ه/ه //ه/ه //ه//ه

فعول مفاعيلن فعولن مفاعيلن   فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن

وبحر الطويل من أطول البحور و تبلغ مقاطعه ثمان وعشرين مقطعاً ؛ ولذلك فهو يعطى إمكانات للسرد ، والبسط القصصى والعرض الدرامى ؛ ولهذا نجده يكثر فى أشعار السير والملاحم واحتواء الاساطير (٢٠) .

ويكثر فى مقطع هذا البحر المقطع الطويل انذى يعطى الهدوء والاستقرار ويتناسب والتأمل .

* ومن ناحية المفردات : يسيطر على مفردات القصيدة المجال الدينى ، فمنها ما يشير إلى جانب الإيمان في ألفاظ : مصحف ابن عمران ، الكهف ، خشية الله ، ساجد أنوار ، الشريعة ، رضى الله ، البر ، الصفح ، الشرف ، الافتاء ، يوسف ، كمالاً ، إيماناً ، إمام الهدى ، ومنها ما يشير إلى جانب الكفر في ألفاظ : الأهواء ، اليأس ، حرقت ، أبدعوا بدعاً ،صنم ، الأعادى ، الحقد ، تغضب ، مرجف ، كفره .

وبين هذين المعجمين نجد ألفاظ من معجم المدح القديم : الحلم ، الحر ٠

*ومن ناحية التراكيب النحوية : يتبع الشاعر الجمل الفعلية ذات الفعل الماضى من أول بيت حتى أخر بيت:

صـدقت عن الأهواء ، أنصـفت ، صـحبت ، فقر ، رحت ، وعدت وكنت ، وكان ، أزهر ، وجمع ، ورأوا ، فقاموا ، وباتوا ، فأشرق ، وتجلى ، وأشرق ، رأيتك ، كملت .مما يؤكد سـيطرة الإطار السـردى من ناحية ، ويعطى للقصـيدة نوعاً من التأكيد والحركة وهذا ما يناسـب الرد على الشـك والتخمين والرجم بالباطل ، والشـاعر مغرم بالعطف بالفاء للسـرد ، ولكى يعطى القصيدة نوعاً من السـرعة . ولا تشـغل الجمل الاسمية الا جملاً قليلة :

فأنت بهم كالشمس بالبحر إنها ترد الأجاج الملح عذباً فيرشف

كنوع من تثبيت الدلالة . ويلاحظ أيضـاً قلة الفعل المضـارع الذى يرد فى إطار الجملة الاسمية : الحر يصـدف ، ذو اللب ينصـف ، وهى ترد كنوع من التعقيب على الجمل الفعلية الماضـية . مما يعطى حركة للقصـيدة ولا يلجأ الشـاعر الى الجمل الطويلة إلا فى إطار جمل النواسـخ كأن فى الأبيات ٥،٦ كنوع من الاسـتدلال والإيضـاح والتأكيد فى جمل :

كأن فؤادى إبرة قد تمغنطت بحبك أنى حرفت عنك تعطف

كأن يراعى فى مديحك ساجدا مدامعه من خشية الله تذرف

كأنك والآمال حولك حوم نمير على عطفيه طير ترفرف

* ومن ناحية الصـورة : يغلب على الصـورة عنصـر التشـبيه فى الأبيات ٤،٥،٦ : كنت كما كان ابن عمران ناشـئاً ، وكان كمن فى سـورة الكهف يوصـف ، غير أن غموض التشـبيه على من لا يعرف الموقف فى سـورة الكهف بين موسـى عليه السـلام والخضر يقلل من تأثير التشبيه .

والتشـبيه فى الأبيات ٥،٦،٧ تشـبيه جديد فى موضـوعه حيث يلجأ إلى تصـوير القلب بالأبرة فى قوله : " كأنهم على صـنم الجاهلية عكف " تمثيلى تصـويرى ، " وأنت بهم كالشـمس بالبحر " تمثيلي أيضـاً ، وتقل الاسـتعارات وتذكر بأثر الإمام فى غيره كالنور المشرق.

* ومن ناحية الرؤية : تتكامل مفردات المعجم الشعرى فى القصيدة مع صياغاتها النحوية التركيبة والتصورية والإيقاعية فى إبراز رؤية واقعية تتركز فى الدفاع عن الإمام محمد عبده من حملات التشويه والتشكيك فى مصداقيته كزعيم دينى مصلح يتصف بكل ما يتصف به رجل الدين من علم وسلوك وإثبات.

هوامش الفصل الأول:

١- لسان العرب ص ٤١٥٦

٢- مقاييس اللغة ح٥ ص٣٠٨

٣-مصطلحات نقدية ص٤٤٤

٤ - نقد الشعر ص٩٦

٥-نقد الشعر ص ٩٧-٩٨

٦-نقد الشعر ٩٨

٧-مصطلحات نقدية ص٤٤٥

٨- نقد الشعر ص ٩٥

٩- منهاج البلغاء ص٣٥١

١٠- العمدة ج٢ ص١٢٩

١١- العمدة ج٢ ص١٢٨

١٢ -عبد العزيز نبوى : دراسات فى الأدب الجاهلى — القاهرة – الصدر لخدمات الطباعة ١٩٨٨ م ط ثانية – ص ١٧٩

١٣- أسس النقد الأدبى ص ١٧٧ – ص ١٧٨

١٤- دراسات في الأدب الجاهلي ص١٨٣-١٨٤-١٨٥

وانظر أيضا : العصرالجاهلي : شوقي ضيف ٠القاهرة دار المعارف ١٩٨١م ص٢١١

١٥- درويش الجندى ٠ ظاهرة التكسب واثرها فى الشعر العربى ونقده ٠القاهرة دار نهضة مصر ١٩٦٩ م ص ١٩

١٦- تاريخ الشعر العربى فى العصر الإسلامى يوسف خليف ص ٦١
١٧-ظاهرة التكسب بالشعر ص ٢٥ - ٣١
١٨-ظاهرة التكسب بالشعر ص ٣١ - ٣٢
١٩- حافظ إبراهيم : ديوان حافظ إبراهيم ٠ القاهرة المطبعة الأميرية القاهرة ١٩٥٦م ج١ ص ٩ ، ١٠ . متضمناً الابيات ومعانى
٢٠- عبده بدوى : دراسات فى النص الشعرى في العصر العباسى ٠الكويت دار الرفاعى للنشر ١٩٨٤ م ط ثانية ص ١١٦

الفصل الثانى

الرثاء

تعنى كلمة الرثاء المدح للميت بعد موته تعديد محاسـنه لغة . كما يقول : (ورثى فلان فلانا يرثيه رثاء ومرثيه إذا بكاه بعد موته . قال فإن مدحه بعد موته قيل رثاه يرثيه ورثيت الميت رثاءاً ورثاء ومرثاة ومرثية ورثيته: مدحته بعد الموت وبكيته ورثوث الميت أيضـاً إذا بكيته وعددت محاسـنه ، وكذلك إ ذا نظمت فيه شـعرا " (١)٠ فالرثاء فى دلالته مدح للميت وتعديد لمأثره فى الشـعر . وهذا المعنى عند المتأدبين مديح للميت مسبوق بكان أو تولى وقضى نحبه كما يقول قدامة : " ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أن يذكر فى اللفظ ما يدل على أنه لهالك ، مثل : كان وتولى وقضى نحبه وما أشـبه ذلك " (٢) ، وتابعه فى ذلك ابن رشيق فى قوله : "وليس بين الرثاء والمدح فرق : إلا أنه يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به ميت مثل كان أو (عدمنا به كيت وكيت) وما يشـاكل كل هذا ليعلم أنه ميت " (٣) ، وهذا تعريف ينقصه إظهار الحزن والأسى (٤) ٠

وفى هذه التعاريف يستنتج أن للرثاء جانبين :

الأول : التعبير عن مشاعر الحزن والبكاء على الميت .

الثانى : تعديد محاسن الميت ، وهو ما أشار إليه قدامة بالمدح بالصفات النفسية وهى فقد بكى فيه الصفات الأربع التى هى العقل والشجاعة والعفة والحلم .. " (٥) ٠

ويتحقق الرثاء الجيد بعدة شروط :

* إظهار التفجع والحسرة والتلهف والأسف على الميت وفى ذلك يشير ابن رشيق إلى أن ذلك مع الملوك والحقيقة أنه مع الجميع حيث يعود ابن رشـيق ليقرر أن الرثاء يبنى على شدة الجذع مستشهداً بقول أبى تمام:

لولا التفجع لادعى هضب الحمى وصفا المشقر أنه محزون (٦) .

وكذلك يقول حازم القرطاجنى : " وأما الرثاء فيجب أن يكون شـاجى الأقاويل مثيرا للتباريح ، وأن يكون بألفاظ مألوفة سهلة في وزن متناسب ملذوذ " (٧)

* أن تبدأ القصيدة فى الرثاء بما يدل على قصدها ولا تشتمل على ما يناقص غرضها فلا تبدأ بالتسبيب ، إن كان ذلك نادراً فى الشعر العربى وليس من عادة الشعراء تقديم النسيب إلا فى قصيدة دريد بن الصمة :

أرث جديد الوصل من أم معبد　　　بعاقبة أم أخلفت كل موعد ؟(٨)

ويرابن رشيق " أنه الواجب في الجاهلية والإسلام ، وإلى وقتنا هذا ومن بعده ؛ لأن الآخذ في الرثاء يجب أن يكون مشغولا عن التشبيب بما هو فيه من الحسرة والاهتمام بالمصيبة " (٩) ، ويعلل تغزل دريد بأنه " إنما تغزل دريد بعد قتل أخيه بسنة ، وحين أخذ ثأره ، وأدرك طلبته " (٩) .

* لا يستساغ ختم قصيدة الرثاء بالغزل لأن الراثى مشغول بحزنه وحسرته عن الغزل (١٠).

* الرثاء شديد الصعوبة إذا تعلق بشخص ينتمى بصفة حميمة للشاعر كالأطفال أو النساء وذلك لشدة المصاب ، ولضيق الكلام عليه فيهما ، وقلة الصفات (١٠) ، و فى رثاء الشاعر ولده أوامرأته قد لا يستطيع لشدة تفجعه ولا يستطيع الشاعر إجادة الرثاء كما أجاد محمد بن عبد الملك الزيات في رثاء أم ولده :

ألا من رأى الطفل المفارق أمه　　　بعيد الكرى عيناه تبتدران

رأى كل أم وابنها غير أمه　　　يبيتان تحت الليل ينتحبان

وبات وحيداً فى الفراش تحثه　　　بلابل قلب دائم الخفقان (١١)

* الصياغة والأسلوب الجيد فى المفردات والتركيب والاساليب والأوزان ، كما يقول حازم القرطاجى : " وأن يكون بألفاظ مألوفة سهلة في وزن متناسب ملذوذ " (٧) ، وذلك لأن الرثاء الصادر عن نفس حزينة لا تشغل نفسها بالبحث عن الغريب والحوش من اللفظ والسهل من التركيب حتى يؤثر فى المتلقى .

* ويرى النقاد أن الرثاء يتناسب مع شخصية الشاعر فقد يجيد شاعر بعض فنون الشعر دون بعض كأن يجيد المدح دون الرثاء

* من طرق الرثاء أن يذكر الشــاعر بكاء الأشــياء على الميت كما يقول قدامة : ومن الشعر من يرثى بذكر بكاء الأشياء التى كان الميت يزاولها ٠٠وغير ذلك ، ومثله يحتاج الى تعلم صـــحة هذا المعنى فى مثل ما تكلم به فى مثل هذه الأشـــياء ؛ فإنه ليس من أصابة المعنى أن يقال فى كل شيء تركه الميت بأنه يبكى عليه ، لأن من ذلك ما أن قيل إنه يبكى عليه لكان ســيئة وعيبا لاحقين به " (١٢) ، وقدامة محق فى ذلك لأنه ليس ذكر كل شيء مداعاة للحزن والتحسر .

* ويرى بعض النقاد أن رثاء النساء يكون أشد تأثيراُ من رثاء الرجال لأنهن أشجى قلوبا عند المصيبة وأشـدهم جذعاً ، كما يقول ابن رشـيق : " والنسـاء أشـجى الناس قلوباً عند المصــيبة وأشـــدهم جزعاً على هالك ؛ لما ركب الله عز وجل فى طبعهن من الخور وضـعف العزيمة " (١٣) ٠ويستشـهد فى ذلك برثاء جليلة بنت مرة لزوجها كليبا حين قتله أخوها حسان بن مرة ، وصف شعرها بقوله : " ما أشجى لفظها ، وأظهر الفجيعة فيه ، وكيف يثير كوامن الأشجان ، ويقدح شرر النيران " (١٣) ٠

وتطور فن الرثاء منذ العصر الجاهلى حتى الأن .

فقد بدأ الرثاء في العصـر الجاهلي بنقش على قبور الأقيال والأذواء في اليمن ، والأمراء في الحيرة ، وفي الشـــام ، حيث يكتبون الأسماء والألقاب كنوع من التخليد والتمجيد (١٤) ٠ ، ثم تطور إلى صــــورة من التأبين ، تـذكر فيهـا صــــفـات المعنوية من الكرم والشـجاعة ، والقوة ، والعدل والعفة ٠٠وغيرها من صـفات المدح للميت ، وقدم مثل هذه الصـور الرثائية شـعراء من أمثال الخنسـاء في رثاء أخيها صـخر ، ورثاء مهلهل بن ربيعة لأخيه كليبا بعد أن قتله جسـاس بن مرة ، ومتمم بن نويرة في رثاء أخيه في حرب الردة ٠

وفي العصر الإسلامي اكتسبت معاني الرثاء بعدا إسلاميا لإي رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم رثى الشعراء في العصر الأموي الخلفاء والأمراء ، وفي العصر العباسي وبعده الشعراء الخلفاء والأمراء والقواد والكتاب والوزراء ، ودار رثاؤهم حول المعاني والصفات الأخلاقية التي كانت دائرة في الرثاء الجاهلي من معاني كانوا يطلبونها في أشرافهم وأصحاب السيادة والنباهة (١٥) ، ورثوا العلماء والأدباء وبينوا فضلهم في العلم والشرع والأدب ٠

وقد تطور فن الرثاء في العربي العباسي والأندلسي إلى رثاء الدول التي تسقط ، وبيان مآثرها وفضلها من مثل رثاء دولة الأمويين لأبي العباس الأعمى ، ورثاء البرامكة ، ورثاء إيوان كسرى ورثاء ملوك الطوائف في الأندلس كرثاء دولة بني الأفصس لابن عبدون ، ودولة بني عباد لابن اللبانة ، ورثاء الفاطميين لعمارة اليمني (١٦) ٠

كما تطور الرثاء إلى رثاء البلدان والمدن المنكوبة والزائلة في الشرق والغرب ، مثل رثاء بغداد في عهد المأمون ، ورثاء بيت المقدس بعدما سقطتت في يد الصليبيين ، ورثاء طليطلة وشاطبة وجيان وإشبيلية في الأندلس ، ورثاء أحمد شوقي لدمشق ورثاء فلسطين (١٧) ٠

رثاء النبي (ص)

لرجل من غطفان (١٨)

هذه القصيدة من اختيارات المبرد ، وقد أنشدها له الرياشى لرجل من غطفان من بنى عبد الله ، كان له صحبه قتل يوم جلولاء وهي ناحية من الوادى فى طريق خرسان ، ويقال له : سالم ، يرثى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد وردت أبيات من هذه القصيدة منسوية الى صفية بنت عبد المطلب عمة النبى صلى الله عليه وسلم ، ذكر ابن سعد فى طبقات بعض أبياتها ، وذكر النويرى عشرة أبيات منها فى نهاية الأرب (١٨ – ٤٠٤) (١٨) : [المتقارب]

أفاطِمُ بَكِّى ولا تَسْأمِى   لِصُبحِكِ ما طَلَعَ الكَوْكَبُ

فقدْ هُدَّتْ الأرض لمَّا ثَوَى   وأىُّ البَرِيةِ لا ينْكَبُ

فَمَا لى بَعْدَك حَتَّى المَماتِ   إلَّا جَوى دَاخِلُ مُنْصِبُ

جَوىً حَلَّ بَيْنَ الحَشا والشَّغَافِ   فخيَّم فِيهِ فَمَا يَذْهَبُ

فيا عَيْنُ وَيْحَكِ لا تَسْأمى   ومَا بَالُ دَمْعكِ لا يَسْكُبُ

وقدْ بَانَ مِنْكِ الَّذى تّعْلَمينَ   وضاقَتْ بِكِ الأرْضُ والمَذْهَبُ

ومنْ ذَا – لَكَ الوَيْلُ – بَعْدَ الرسُولِ   يُبْكَّى من الناسِ أو يُنْدَبُ

فإنْ تَبْكِه تَبْكِ خيرَ الأَنامِ كثيرُ الفوَاضِلُ لا يُجْدَبُ

وإنْ تبكه تبكِ سهْلَ الجَنَا   بِ مَحْض الضَرائبِ لا يُؤْشَبُ

وإن تبكه تبكِ نورَ البِلا   دِ ضخْمَ الدَّسيعَةِ لا يُحْسَبُ

وإنْ تبكه تبكِ خيرَ الأَنَامِ   سَرِيعًا سَوَابِلُهُ مُخْصِبُ

وإن تبكه تبك وارِى الزِنادِ   صَدُوقَ المَقَالَةِ لا يَكْذِبُ

وتَبْكِي الرَّسُولَ وَحُقَّتْ له شُهُودُ المَدِينَة والغُيَّبُ

وتبْكِى له الصُّمُّ صُمُّ الجِبَال وشَرْقُ المَدِينة والمَغْرِبُ

وتَبْكِيه شَعْثَاء مَضْرُورةٌ إذا حُجِبَ النَّاسُ لا تُحْجَبُ
(ويبكيه) شيخٌ أبو وِلْدَةٍ تُطِيفُ بِعَقْوتِهِ أَشْيبُ
(ويبكيه) أهْلُ النُّهَى والحِجَى منْ النَّاسِ والطَّارِقُ الأَخْيَبُ
وتبكيه ضيْفٌ جَفَاهُ الصَّديقُ وذو النَّسَبِ الدَّاخِلُ الأَقْرَبُ
ويبكيه شُعْثٌ خِمَاصُ البُطُونِ أضرّ بِهِمْ زَمَنٌ أَنْكَبُ

وصلى الله على محمد وعلى اله وصحبه وسلم .

معانى المفردات :

١-الكوكب : يقصد طلع الشمس.

والمعنى : يافاطمة ابكي ولا تتعبي من بكائك ، حتى تطلع شمس الصباح

٢-ثوى : أقام في قبره ، البرية : الخلق ، ينكب : يصاب بنكبة وهي المصيبة

والمعنى : لأن بموته صلى الله عليه وسلم قد تهدم كل ما على الأرض ، وخرب كل شئ ، وهذا مصاب جلل عم الأرض كلها ، وحزن لأجله أهل الأرض كلهم

٣-جوى : مرض صدره . منصب : النصب هو التعب ومنصب متعب

والمعنى : لقد حزنت بوفاتك يا رسول الله ، وأصابني بوفاتك مرض في صدري أتعبني .

٤- الحشـا : ما دون الحجاب مما يلي البطن كله من الكبد والطحال والكرش وما تبع ذلك . والشغاف : سويداء القلب وحبته

والمعنى: واستقر هذا المرض بين أحشائي وسويداء قلبي ، ولم يتحرك من مكانه

٥-والمعنى : وعيني لا تكف عن الدمع بلا تعب أو ملل حتى جفت مآقيها .

٦-والمعنى: وظهر لي ضيق هذه الدنيا بمن فيها ، وحارت نفسي ، والا أدري ما أفعل

٠٧-لك الويل : لك العذاب ٠ والمعنى : لا أحد بعد الرسول صلى الله عليه وسلم يستحق أن يبكى ويندب عليه لأنه لن يصل إلى مكانته ، وكل من يرى ذلك له الويل ٨/٩/١٠/١١/١٢/- الأنام : الخلق ، يجدب : ينقطع خيره ، الجناب : الجانب ، المحض : كل شئ خلص حتى لا يشوبه شئ يخالطه ٠ضرائب : مفردها ضريب وهو الشبيه والمثيل ، يؤشب : الأشياء جمعها وخلطها ٠ الدسيعة : العطية الجزيلة ، سوابله : مفردها سابلة وهي الطريق المسلوكة ، مخصب : كثير الخير ، واري الزناد : الزند هو العود الأعلى التي تقدح به النار ، وورى زنده أي أخرج ناره ، وهي كناية عن النجدة والإعانة ٠

والمعنى : كل الناس يبكون محمدا صلى الله عليه وسلم لما اتصف به من صفات طيبة فهو كثير الفضل والعطاء لا يقل خيره أبدا ، وهو البسيط المتواضع لين الجانب لا مثيل له ولا ضريب لا يخالطه في صفاته أحد ، وهو نور هذه البلاد وهاديها إلى النجاح والفلاح كثير العطايا لا يقاس بأحد ، وهو خير خلق الله كلهم ، قاصده لا يتعب فهو سهل القصد سهل الطريق ، لا يخيب لأحد رجاء ،وهو كثير الخير سريع الخر والنجدة والإعانة ، صادق صدوق ، لم ترى عليه كذبة أبدا فهو الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم ٠

١٣-شهود المدينة : الذين يعيشون وشهدوا وفاته صلى الله عليه وسلم ،الغيب : الغائبون ٠/١٤-الصم : الصلب المصمت /١٥- شعثاء : المراءة التي تفرق شعرها واتسخ وتلبد ، مضرورة : أصابها الضر ١٦-ولدة : كثير الأولاد ولا مال عنده ، عقوته : العقوة : ساحة البيت ، ١٧- النهى جمع جمع نهية وهي العقل ، الحجى : العقل ٠الطارق : الضيف ، الأخيب : من لا أحد يضيفه ١٨- جفاه : أنكره ٠ ١٩- خماص البطون : خالي وضامري البطون ٠

والمعنى : (١٣-١٩) : ويبكي عليه معي أناس كثيرون منهم : أهل المدينة الحاضــرون والغائبون ، والأرض كلها شرقها وغربها وسهولها وجبالها الصلبة الصماء ، وكل امراءة فقيرة أصابها العوز والضرر لا مال ولا معين لها ، فبدت شعثاء ، وكل رجل كبر سنه وضعف بدنه وشاب راسه ، وكثر أولاده الصغار الذين يلعبون في ساحة داره ، وكل أصحاب العقول السليمة والضيف الطارق الذي لا أحد يعرفه ، وكل ضيف ابتعد عنه أصدقاؤه وأقاربه في لحظة عوزته ، وكل الجياع والضاعين والذين جارت عليهم الأيام ، صلى الله عليه وسلم.

التعليق على النص :

* تقدم القصيدة مضموناً موضوعياً تشارك فى استجلائه وتوضيحه العناصر الأخرى من الموسيقى والمعجم الشعرى والصورة الشعرية والرؤية الواقعية .

* ويتركز موضوع القصيدة فى رثاء شخصية متميزة عربيا وإسلاميا.. إنها شخصية النبى صلى الله عليه وسلم الرحمة المهداة والنعمة المسداة ؛ فيتوجه الشاعر بداية إلى فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم يخرج من ذلك إلى بكاء غيرها وبكاء الأرض والبرية كلها وبكاء الشاعر ، وما ذلك إلا لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يبكيه أبناؤه فقط ولا أحبابه فقط ، وإنما تبكيه الدنيا كلها يسيل دمعها ولا تسأم ، فالرسول صلى الله عليه وسلم خير الأنام كثير الأفضال ، هو النور الهادى الذى أنار الأرض بالإسلام ضخم العطية ، فهو الجود والكرم والهداية والصدق والوقار والحلم ، تجمعت فيه كل صفات الفضل ، كما قال تعالى (وإنك لعلى خلق عظيم) (سورة (ن)) .

والرسول صلى الله عليه وسلم هادى الأمة يبكيه عدد كبير من الناس والأشياء تبكيه المدينة بنسائها ورجالها وشبابها ، كما تبكيه جبالها وأرضها وشرقها وغربها ، كما تبكيه المرأءة الشعثاء الفقيرة التى لا تجد قوت يومها ، كما يبكيه الشيخ العاجز الذى كبر سنه وضعفت قوته وكثر أبناؤه الصغار، كما يبكيه أصحاب العقول من الناس ، كما يبكيه الأضياف مهما اختلفت ألوانهم وجنسياتهم خاصة الضيف الذى جفاه صديقه ومن تنصل منه أهله ، ويبكيه الجائعون والفقراء فى كل مكان ومن نكبهم الزمان وتغايرت عليهم الايام وتبدلت أحوالهم من عز إلى ذل ٠٠٠ كل هؤلاء جميعاً يبكون عليه صلى الله عليه وسلم لأنه رحمة لهم جميعاً

وتنتمى هذه القصيدة من الناحية الموسيقية إلى بحر المتقارب وهو بحر تتقارب أسبابه من أوتاده كما سمى بذلك وهو يناسب القص القصير ويناسب البكاء والعويل والندب والتأوه وعموماً شعر الرثاء وتفعيلاته كالآتى :

أفاطم بكى ولا تسأمى لصبحك ما طلع الكوكب

* ومن ناحية المعجم الشعرى : حشد الشاعر كل ألفاظ البكاء ؛ فأكثر من ألفاظ أبكى وبكى وتبكيه وتبكى وهدت وثوى ونكب وممات وجوى وخيم ودمعك ويندب٠٠٠ ، وهى ألفاظ توحى بالحزن الشديد على وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، وتصور حالة ما يعيشها الشاعر والمسلمون ٠

ويشير الشاعر إلى معجم آخر يمثل صورة مواجهة للحزن وهى صورة فضل النبى صلى الله عليه وسلم وصفاته الطيبة التى تتمثل فى عدد من الألفاظ التى ترسم صورة مثالية مثل : خير الأنام ، كثير الفواضل ، لا يجدب ، سهل الجناب ، محض الضرائب ، نور البلاد ، ضخم الدسيعة ، وارى الزناد ، صدوق المقالة ٠

وتشارك ألفاظ هذين المعجمين فى إطفاء لوعة كبيرة من الحزن على رجل كثير الصفات الطيبة ، وقد حشد الشاعر معظم الفضائل النفسية كالجود والكرم والحلم والسماحة والصدق ، وهى صفات نفسية يتصف بها الممدوح كما يتصف بها المرثى .

* ومن ناحية الصورة : نجد الشاعر وقد أخذته المفاجأة فلم يلجأ الى التزين والتدقيق فى اختيار الصورة ؛ ولذلك قلت الصور فى القصيدة واقتصرت على استعارتين مكنيتين فى : فيا عين ويحك لا تسأمى ... فقد صور الشاعر العين بشخص وحذفه وأبقى صفاته فى خطابه على سبيل التشخيص . وفى : وتبكى له صم الجبال ... وشرق المدينة والمغرب : فيها شخص الشاعر الجبال والمدن فجعلها أشخاصا تبكى على موت النبى صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستعارة المكنية ، ويوحى ذلك بأن الكون كله من جماد وغيره كان يستمتع بفضل سيدنا محمد ويحزن على فراقه ،

* وقد لجأ الشاعر الى الجمل المؤكدة عل مستوى الجمل الفعلية أو على مستوى الجملة الشرطية ، فعلى مستوى الجملة الفعلية نجده يقول : فقد هدت الأرض ، وقد بان منك . وعلى مستوى الجملة الشرطية يقول: فإن تبكيه فى خمسة مواضع.ويستخدم الفعل المضارع فى يبكيه وتبكى كل ذلك تأكيد وترسيخ بمدى ما يعانيه الشاعر من حزن وألم . ويلجأ الشاعر إلى النهى باستخدام لا تسأمى ، بما يعنى أن الشاعر يطلب البكاء المستمر الذى لا ملل منه مما يوحى بفداحة المصاب فى هذه القصيدة ويستخدم الشاعر الجمل الوصفية المتمثلة فى جملة صلة الموصول (الذى تعلمين) كنوع من التوضيح ، ويستخدم الأفعال المضارعة المنفية بعد كل صفة : كثير الفواضل لا يجدب – محض الضرائب لا يوشب – ضخم الدسيعة لا يحسب – صدوق المقالة – لا يكذب – وهى أفعال مضارعة منفية تقوم بدور في التركيب ، وكل ذلك يجسد حالة الحزن الشديدة التى عمت الشاعر والكون كله .

*ومن ناحية الرؤية الواقعية تقدم القصـــيدة رثاء لشـــخصـــية عامة قائدة رائدة مؤثرة اجتمعت فيها كل صـــفات الكمال والرحمة والهداية للناس ، وحق أن يبكوها ، وتكرر صفات الكرم والشجاعة والعفة والنجدة ...

شهداء العلم والغربة (١٩)

للشاعر أحمد شوقى

ألا فى سبيل الله ذاك الدمُ الغالى — وللمجد ما أبْقى من المَثَلِ العالى

وبعضُ المَنايا هِمَّةٌ من ورائها — حياةٌ لأقوامٍ ودنيا لأجيال

أَعْيَنَّى جوداً بالدُّموع على دمٍ — كريمِ المصفى من شباب وآمال

تناهتْ به الأحداثُ مِن غُرْبَةِ النوى — إلى حادثٍ منْ غربةِ الدهْر قتَّال

جرى أُرْجُوَانياًّ كُمَيْتًا متَغْشَعاً — بأبيضَ من غِسْلِ الملائك سَلسال

ولاذَ بقضبانِ الحديدِ شهيدُه فعادت رفيفاً من عُيون وأظْلال

سلام عليه فى الحياةِ وهامداً — وفى العثصُرِ الخالى وفى العالم التالى

خليلَّي قوما في رُبَى الغرب واسقيا — رياحينَ هام في التراب وأوصال

****

فيا ناقلِيهم لو تركتم رُفَاتَهم — أقام يتيماً فى حراسةِ لآل

وبين غريبالدى وكافورَ مُضْجَعٌ — لنُزَّاعِ أمصارٍ على الحق نُزَّال

فهل عَطَفَتْكُمْ رَنَّةُ الأهْلِ والحِمَى — وضَجَّة أترب عليهم وأَمْثَال ؟

حَمَلْتم من الغرب الشموسَ لمشرقٍ — تلقى سناها مُظْلماً كاسفَ البال

عَواثرَ لم تَبْلغْ صِبَاهَا ولم تنلْ — مداها ولم تُوصَلْ ضُحَاها بآصال

يطافُ بهم نَعْشاً فنعشاً كأنَّهَمْ — مَصَاحِفُ لم يَعُلْ المُصَلِّى على التال

توابيتُ فى الأعْنَاقِ تتْرَى زكية — كتابوتِ موسى فى مناكب إسْرَال

مُلَفَّفَة فى حُلَّةٍ شَفَقِيَّةٍ هِلاليّةٍ من راية النيل تِمْثَال

أظَلّ جلالُ العلم والموتِ وفدَهَا فلَمْ تُلْقَ إلَّا فى خُشُوعٍ وإجلال

تُفَارِقُ داراً من غرورٍ وباطِلٍ إلى مَنْزِلٍ من جيرةِ الحقّ محلال

فيا حَلْبَةً رَفَّتْ على البحر حِلْيَةً وهَزَّتْ بها حُلوانُ أعْطَاف مختال

جَرَتْ بين إيماض العواصم بالضُّحى وبين ابتسام الثغر بالموكب الحالى

كثيرةَ باغى السبْقِ لم يُرَ مِثْلُها على عهد إسماعيل ذى الطَّوْل والنال

لَكَ اللهُ هذا الخَطْبُ فى الوهْمِ لم يَقَعْ وتلك المنايا لم يكُنَّ على بال

****

ويا نَشْأَ النيل الكريم عزاءَكُم ولا تذكروا الأقدارَ إلَّا بإجمال

عليكم لواءَ العلم فالفوز تَحْتَهُ وليس إذا الأعلام خانت بخَذَّال

إذا مال صَفٌّ فاخلفوه بآخرٍ وَصُول مساعٍ لا مَلُولٍ ولا آل

ولا يصْلُحُ الفتيان لا علمَ عندهم ولا يجمعونَ الأمرَ أنصافُ جهال

إذا جَزِع الفتيان فى وقْع حادثٍ فمن لجليلِ الأمر أو مُعْضِلِ الحال؟

ألستُم بنى القوم الذين تكبَّروا على الضربات السَّبع فى الأبد الخالى؟

رُدِدتُم إلى فرعون جداً وربما رجعتم لعَمٍّ فى القبائل أو خال

****

تعريف بالشاعر:

ولد الشاعر أحمد شوقى في القاهرة سنة ١٨٦٩م ، وتوفى بها فى ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢م ، ولد لأبوين مصريين من أصول خمسة ورثها ، فقد ورث عن أبيه الدم العربي والكردى والشركسي ، وورث عن والدته الدم التركي واليوناني .

ألتحق شوقي بكتاب الشيخ صالح في الرابعة من عمره ، تعلم بمدرسة المبتديان الابتدائية ثم التجهيزية والثانوية وفيها اختلط بأبناء الشعب وحياقم وتفتحن عنده مواهبه الشعرية . وفى عام ١٨٨٥ ألحقه والده بمدرسة الحقوق لدراسة القانون ، وفيها أنشئ قسم للترجمة ، الذي إلتحق به ، وفيها تعرف بالشيخ محمد البسيونى الذى لاحظ موهبته الشعرية ، ودفعه الشيخ إلى مدح الخديوي توفيق ٠وبعد تخرجه عينه الخديوي توفق فى القصر ثم أرسله الى أوربا ليدرس القانون والأدب فى فرنسا ، وكانت رحلة مثمرة شاهد فيها مسارح فرنسا واتصل بحياقا الادبية وقرأ لأدبائها المشهورين مثل فيكتور هيجو ولا مرتين . ولما عاد الى مصر بعد عامين عين رئيساً للقسم الافرنجى بالقصر ، وأصبح شاعر عباس .

وفي ١٩١٤م قامت الحرب العالمية الاولى ؛ فخلع عباس وعينوا بدله السلطان حسين كامل ، فغضب شوقي ونظم قصيدة غمز فيها بالإنجليز ، فقاموا بنفيه إلى أسبانيا ، وفى هذا المنفى نظم شوقى قصائد تناول فيها تاريخ العرب الضائع في الاندلس ، وظل فيها حتى عام١٩١٩م ، حيث عاد ليتحول من القصر إلى الشعب ليكون شاعر الشعب يعبر عن آلامه وآماله ، ويتغنى بأمجاده الوطنية ٠ وقد شهد شوقى أنواعاً شتى من الأحداث التى مرت بها مصر كالثورة العرابية والاحتلال الانجليزى لمصر والحركة الوطنية لمصطفى كامل ومحمد فريد ، وتغنى بالشعر الوطني ، وأشاد بالجهاد والمجاهدين ، و سجل كثيرا من أحداث مصر ضمن شعره الوطنى ، وعبر عن الأحداث والثورات العربية .

وقام شـــوقي بطبع ديوانه عام ١٩٢٧م ، وأقيم له حفل تكريم شـــاركت فيه البلاد العربية تمجيدا لشاعريته ، وبايعه الشعراء بإمارة الشعر العربي ، وأنشد حافظ إبراهيم قوله :

أمير القوافي قد أتيت مبايعا وهذي وفود الشرق قد بايعت معي (٢٠)

****

معانى المفردات :

مناسبة القصيدة : ألقيت هذه القصيدة (بشهداء العلم والغربة) في جماعة من شباب مصر سافروا إلى أوربا لتلقى العلوم فى جامعاتها ؛ فاصطدم القطار الذى يقلهم بمكان فى إيطاليا . فقتل أحد عشر طالباً ، ونقلت جثثهم إلى مصر فاستقبلها الشعب استقبالا عظيماً اشـتركت فيه كل الطوائف ، ولقد زاد المصـاب هولا أنه حدث والبلاد مشـتعلة بالثورة سنة ١٩٢٠ م

١/٢- والمعنى : في سبيل الله دماء هؤلاء الشباب الشهداء الذين استشهدوا في سبيل العلم وتحقيق مجد أمتهم الذي تسعى إليه بتعليمهم ، وهم مثال حي على الهمة العالية ، ولعل موتهم بهذه الطريقة يوقظ الهمة في نفوس أمثالهم لتحقيق ما كانوا يتطلعون إليه من تحقيق للأمال وطنهم ، وحياة أمتهم في دنيا جديدة ٠

٣-٨-تناهت الأمر : بلغ نهايته ، النوى : البعد ، الأرجوانى : نســبة إلى الأرجوان وهو صبغ أحمر يشبه به الدم لشدة حمرته . الكميت : حمرة يخالطها سواد . المشعشع : الممزوج بالماء . غســـل : ما يغســـل به ، أظلال : جمع ظل ، رفيفا: المنتدى من الأشجار وغيرها ، رياحين : مفردها ريحان وهو جنس من النبات طيب الرائحة ، هام : مفردها هامة وهي الدابة ، أوصـال : جمع وصـل وهو المفصـل أو مجتمع العظام أو كل عظم على حدة .

والمعنى : فيا عيني ابكي وأكثري من دموعك حزنا وحسرة عى دماء هؤلاء الشباب الكريمة الصافية وعلى آمالهم وطموحاتهم التي انتهت بموتهم ، فلقد جرت دماؤهم حمراء كلون الأرجوان مختاطة بالماء الأبيض التي غلستهم به الملائكة ، فهم شهداء والشهيد تغسله الملائكة ، جرى هذا الدم الذكي على قضبان السكة الحديد في إيطاليا شهيدا ، ليتحول مكانهم وقبرهم إلى حديقة بها العيون والأشجار وارفة الظلال ، فإلى هذه الأرواح الطاهرة سلام في الحياة وبعد الممات وإلى أن يبعثوا أحياء بعد الموت في الآخرة ، ويا إخواني قوموا على قبورهم ، واسقوا الزروع والرياحين عليها لأنه –كما جاء في الأساطير القديمة عند العرب – تخرج هامة من رأس كل قتيل وتقول اسقوني وتتواجد عند مصارع القتلى وأجداثهم (٢١) ٠

٩–رفاتهم : جثث ، آل : السراب

١٠–غريبالدي وكافور : بطلان من أبطال الجهاد لاستقلال ايطاليا . أمصار : بلاد

١١–عطفتم : توجهتم ، رنة : الصوت الحزين عند الغناء أو البكاء ، اتراب : أصحاب

والمعنى (٩–١١) : يامن نقلتم جثثهم ، لقد أحسنتم بنقلهم ، فلو تركتموهم هناك ودفنتموهم هناك لتركموهم في سراب ، في أرض بلا أهل ولا وطن ، في أرض غاريبالدي وكافور الذين حققا الاستقلال لإيطاليا ، لقد نقلتموهم إلى الأهل والحمى في مصر ، وبين أصحابهم وذويهم ٠

١٢–سناها : ضوءها كاسف البال : حزينا مهموما

١٣– عواثر : صغائر وقعت في الشرك

١٤–نعشا : سرير يحمل عليه الميض او الميت ، المصلى : الفرس الذى يجىء أول الخيل فى السباق . المجلى : هو الذى يجىء تالياً له .

١٥–تترى : تتحرك بسرعة ، تابوت موسى : التابوت الذى وضعت فيه موسى عليه السلام أمه . وألقته فى النيل فالتقطه آل فرعون وربوه حتى كبر . إسرال: إسرائيل زكية : كريمة الرائحة

١٦- حلة : ثوب   شفقية بيضاء كالشفق ، هلالية : عليها نقش هلال ويقصد أنها علم مصر

١٧- إجلال : احترام

١٨-محلال : الباطل

والمعنى (١٢-١٨) : لقد حملتم رفاتهم من بلاد الغرب إيطاليا وهم كالشموس إلى بلاد الشرق مصر ، غير أن أهلها في مصر تلقوها محزونون ، لقد وقع هؤلاء الطلاب في شرك الموت في صباها ولم تكبر بعد وتكمل تعليمها وتحقق آمالها ، وطفتم بهم في شوارع القاهرة نعشا وراء نعش كأنهم مصاحف ، في توابيت مثل التابوت الذي وضع فيه موسى عليه السلام وهو صغير ، والتقطيه امرأة فرعون وهو من بني إسرائيل ، جثثهم ملفوفة بأعلام مصر البيضاء ناصعة البياض ، وقد زانها الهلال وهو في علم مصر في عهد إسماعيل ، وقابلهم أهل في خشوع إجلال للعلم رمز الوطنية ، وإجلال الموت ، لقد فارقت دار الدنيا بباطلها وغرورها إلى منزل الآخرة منزل الحق ٠

١٩- الحلبة : الخيل المجتمعة للسباق . رفت : ظهرت ٠ حلوان : إسم الباخرة التى أقلت رفات الشهداء الى مصر .

٢٠-إيماض : إنارة

٢١- النال : العطاء . وفى البيت إشارة الى السباق الذى كان يقام فى حلوان أيام الخديوى إسماعيل .

٢٢- الخطب : المصيبة ، المنايا : جمع منية وهي الموت

والمعنى : (١٩-٢٢): لقد حملت رفاتهم إلى مصر سفينة تسمى حلوان ،وهي تسيرمختالة من إيطاليا إلى مصر ، وسارت بهم عبر الموانئ والعواصم ، لم تقع مثل هذه الواقعة في عهد إسماعيل من قبل على ما فيه من كثرة الخير ، ولم يخطر على بال أحد أن يحدث ما حدث ٠

٢٣- نشأ النيلب : يا شباب مصر ،

٢٤-عليكم لواء العلم : إلتزموه

٢٥-آل : مقصر ومبطىء .

٢٦- جهال : غير متعلمين

٢٧- جزع : الفزع   معضل : مشكل

٢٨-الضربات السبع : إشارة إلى نوازل سماوية امتحن الله بها قدماء المصريين فى الزمن القديم . قال تعالى : " ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون " الأعراف ١٣٠ وقال تعالى : " فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين " الأعراف ١٣٣ ، الأبد الخالي: الزمن القديم ٠

المعنى : (٢٣-٢٩) : ياشباب مصر ، ويا أبناء النيل الكرام ، أقدم عزائي في هذا الخطب الجلل ، واذكروا الأقدار بإجمال ، وعليكم الالتزام بالفوز والاجتهاد د والسعي والنجاح رفعا لرايات بلادكم ، واتحدوا صفا واحدا قويل ، واسعوا لتحقق النجاح بلا كسل أو ملل أو تقصير ، فالتقدم في دنيا اليوم بالعلم ،وليس بالجهل ، ولا بأنصاف المتعلمين ٠٠والخوف والجزع ليس مطلوبا بل التشجع ، وأنتم أهل لذلك فأنتم أبناء الفراعين الذين صبروا على النوازل السماوية السبع ، وأنتم أبناء العرب الأصلاء المؤمنين بالله تعالى و أجدادكم من الفراعنة وأعمامكم وأخوالكم من العرب ٠

التعليق على النص :

تضمنت هذه القصيدة مضمونا اجتماعياً وعلمياً ونفسياً وانسانياً شاركه فى ذلك عدد من العناصر الصوتية والموسيقية والمعجمية والتصورية مستندة إلى رؤية واقعية تضرب بجذورها فى القصيدة وتحرك أطرافها ؛ فالقصيدة قيلت فى مناسبة خاصة فقد خرج جماعة من الشباب إلى أوربا لتلقى العلوم فى جامعاتها وركبوا القطار فى إيطاليا وعند مدينة أودين اصطدم القطار الذى كان يقلهم فقتل منهم أحد عشر طالباً ، ونقلت جثثهم إلى مصر

وانفعل بها شـعب مصـر كعادته ، وخرج من تلقاء نفسـه يشـيع أبناءه وأمله المقصـود ، وشـاركت فى هذا التشـييع طوائف الأمة فى ظروف كانت الأمة تعيشـها محاولة مكافحة الاسـتعمار وظروفها الخاصـة من الجهل والتخلف والمرض وذلك فى أثناء ثورة ١٩١٩م ، وقد تأثر الشاعر بهذه الفاجعة فرثاهم بهذه القصيدة مركزا على غرضين اثنين :

الأول : نعى شباب الأمة من شهداء العلم ٠

الثانى : إرشـاد وتوجيه الشـباب إلى ما فيه خير بلادهم ، ففي الأبيات من ١–٢٧ نعى الشـاعر شـهداء الامة متحدثاً عن هذه الفاجعة وأثرها فى هذه الامة فقال : إن دماء الشباب الذين قتلوا فى هذه الحادثة دماء غالية راح فى سبيل الله وفى سبيل المجد ، وهو حافز لأبناء الأمة للوصـول إلى المجد ، ولا يملك المرء أمامه إلا الدمع ، فقد اسـتشـهد شـباب العلم فى حادثة غريبة بعيدا عن أوطانهم وجرت دمائهم مختلطة بقضـبان السـكة الحديد ، فمنا لهم سـلام ومن أوطانهم سـلام ٠وقد نعاهم الناعى فى مصـر والغرب والشرق ؛ فناحت عليهم الأمهات والأباء والأقمار والرياح وبكاهم الجميع .

لقـد خرجوا من بلادهم يحملون معهم أمـالاً لكن القـدر لم يمهلهم ، هـذا قـدرهم فقـد اضجعوا فى أرض غريبة ، ولم يموتوا فى بلادهم فظفروا بالبعث رغم ذلك فى تراب أرضهم الغالية ، لقد حملوا من الغرب شمس العلم معهم واختفت الأمة بوصـولهم ذهبوا أحياء ، وعادوا نعوشاً طافت بهم الأمة على أعناقهم فى كل مكان كتابوت موسى فى بني إسرائيل ، لقـد لفوا فى حلـل هلاليـة هى أعلام بلادهم النقيـة ، وقوبلوا بجلالين جلال العلم وجلال الموت ، وفارقوا دار الغرور إلى دار الحق . لم تر مصر مثل هذا الخطب فى عهد إسماعيل ، لكن هذه مشـيئة الاقدار ، وليس عجباً أن يموت الشـباب ، ولكن العجب أن نعيش عيشـة المذلولين ؛ فالجميع معرضـون شـباب وشـيبه معرضـون للموت فى أى لحظة ، ونحن فى لحظتنا هذه نرجو أملاً فى شبابنا فهو رمز البأس والجود.

وفى الغرض الثانى يوجه الشاعر نصائحه إلى الشباب مهيبا لهم أن يمضوا فى طلب العلم غير هيابين من الأقدار ؛ لأنها حكم على الجميع ، فعليهم أن يبذلوا الروح فى خدمة وطنهم ولا يجزعوا لما أصـــابهم ويتخذوا من هذه الحادثة معانى دافعة تدفعهم إلى بذل المجهود وبذل الروح لخدمة وطنهم ؛ فهم أحفاد أمم عظيمة من الفراعنة والعرب ، وعليهم أن يعيدوا هذا المجد مرة أخرى ولقد صـــبر أجدادهم على نوازل كثيرة ألمت بهم كالسنين السبع التى ألمت بفراعنة مصر وكانت تسمى بالنوازل السبع .

* ومن ناحية الموسيقى ؛ فالقصيدة تنتمى إلى بحر الطويل بتفاعيله الطويلة

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن   فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

وهو بحر يتناسب وجو القصيدة ، ويتسع لما فيها من رثاء وذكر للقصة والمناسبة ويتسع للنصيحة ويتناسب تماماً مع ذلك .

*ويخلط معجم القصـــيدة بين عدة مجالات منها مجال البكاء والنواح فى ألفاظ : الدم والدموع والنوى وهامداً ، نعاها ، الناعى ، هلوع ، طوى ، مأتم ، يموت ، نعشـــاً ، توابيت ، ملغفة ، يموت ، أخو الصبا ..

وهى ألفاظ تتناسب و القصيدة وتشيع جواً من الفاجعة يمتد علىمسار الغرض الأول .

والمجال الثانى يمثل الدعوة إلى التمســـك والســـعى إلى المجد وألفاظه مثل : المجد –المثل العالى – لواء العلم –شـــباب وأمال – من لجليل الأمر – بني القوم الذين تكبروا – وهي تمثل صـــلابة المصـــريين فى مثل هذه الأحداث وأنهم يضـــمون بكل غال فى ســـبيل هدف أسمى، وأن شـــبابهم يقدمون الدليل على ذلك و النصـــيحة ، وهى دلالات تخرج الأمة من أخزانها إلى السعى إلى تحقيق أمالها دفعاً إلى الأمام وصبرا واحتمالاً على ما كان .

- وفى مجال التصوير يلجأ الشاعر إلى الاستعارة فى : للمجد ما أبقى من المثل العالى ، بعض المنايا همة ، طوى الغرب نحو الشـــرق ، مناحة أقمار ، فيا حلبة ، وهى إستعارات مكنية تميل إلى التشخيص للمنايا والمجد ، وقد يكون هذا التشخيص من تأثير الفاجعة ، فقد فجع الشاعر فى أشخاص فشخص الجوامد والمعنويات. كما يلجأ الشاعر إلى التشبيه فى بيتين مفردين فى قوله :

يطاف بهم نعشاً فنعشاً كأنهم مصاحف لم يعل المصلى على التال

توابيت فى الأعناق تترى زكية كتابوت موسى فى مناكب إسرال

وهى تشبيهات استدعتها صورة النعوش فوق أعناق الرجال التى تشير إلى الحسرة والالم

* وتنبثق القصـــيدة من رؤية واقعية تتمثل فى حاجة الأمة إلى الخروج من أزمتها وواقعها المرير الذى تمثل فى احتلال اســتمر فترة طويلة من الزمن واكبته معاناة الأمة من ظروف الجهل والتخلف ؛ فأرســـلت أبناءها للخروج من التخلف والجهل ، غير أن الاقدار لم تنصـــفها فقد وأدت أبناءها فى مهدهم ، وأن هذه الواقعة فى حد ذاتها تمثل انعطافاً فى هذه الفترة وقد شدت إليها الأمة جميعاً لما فيها من رمز كبير يمثل أمل الأمة الموؤد .

هوامش الفصل الثاني :

١- لسان العرب ص ١٥٨٢

٢- نقد الشعر ص ١١٨

٣- العمدة ح ٢ ص ١٤٧

٤- دراسات فى الادب الجاهلى ص ١٩١

٥- نقد الشعر ص ١٢٠

٦- العمدة ص ١٤٧ / ١٥٣

٧- منهاج البلغاء ص٣٥١

٨- منهاج البلغاء ص٣٥١- ٣٥٢

٩-العمدة ح ٢ ص ١٥١ – ١٥٢

١٠- أسس النقد الادبى ص ٢٣٥

١١- أسس النقد الأدبي ص ٢٤٠

١٢-نقد الشعر ص ١١٨

١٣-العمدة ح ٢ ص ١٥٣ - ١٥٣

١٤-شوقي ضيف : الرثاء ،القاهرة دار المعارف ١٩٨٧م ص٧

١٥- الرثاء ص٦٣

١٦-الرثاء ص٤٠-٤٦

١٧-الرثاء ص٤٧-٥٣

١٨- المبرد :الإمام أبي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت٢٨٦ هـ): التعازى والمراثى والمواعظ والوصايا ، تحقيق : إبراهيم محمد حسن الجبل ،القاهرة نهضة مصر ١٩٩٣ م ص ٢٩٥ - ٢٩٦

١٩- أحمد شوقي بك : شوقيات ، القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية د،ت في أربعة أجزاء ،الجزء الثالث ص ١٢٨-١٣١

٢٠- انظر : شوقي ضيف : شوقي شاعر العصر الحديث ، القاهرة دار المعارف ١٩٧٧م ص ٩-٤٢

شوقي ضيف : فصول في الشعر ونقده ، القاهرة دار المعارف ١٩٧٧م ص٣٣١-٣

٢١- محمد عجيبة : موسوعة الأساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها ،بيروت دار الفارابي ١٩٩٤م ط أولى ص ٣٣٤-٣٣٥

الفصل الثالث

الغزل

يعني الغزل لغويا : " حديث الفتيان والفتيات ، ابن سيده : الغزل اللهو مع النساء .. ومغازلتهن : محادثتهن ، ومراودتهن ، وقد غازلها .. " (١) ٠ويعني اصطلاحيا : " الغزل هو المعنى الذي إذا اعتقده الإنسان في الصبوة إلى النساء نسب بهن من أجله ٠٠٠٠٠والغزل إنما هو التصابي والاستهتار بمودات النساء ٠٠٠" (٢) ٠وهو أحد الأغراض الشعرية أ الفنون الأدبية دالفنية في الشعر ٠

يترافق مع مصطلح الغزل عند النقاد مصطلحا هما : النسيب والتشبيب ، واللغوين لا يفرقون بين الغزل والنسيب والتشبيب إذ تعني كلمة تشبيب الشعر لغويا : " ترقيق أوله بذكر النساء وهو من تشبيب النار وتأريثها وشبب بالمرأة : قال فيها الغزل والنسيب ، وهو يشبب بها أى ينسب بها ٠ والتثيب : النسيب بالنساء " (٣) ٠

غير النقاد قد فرقوا بينها ، فقد ذكر قدامة موضع الفرق بين النسيب والغزل قائلا: " والفرق بينهما أن الغزل هو المعنى الذى إذا اعتقده الانسان فى الصبوة إلى النساء نسب بهن من أجله ، فكأن النسب ذكر الغزل والغزل المعنى نفسه والغزل إنما هو التصابى والاستهتار بمودات النساء " (٢) ، فالغزل هو التصابي والتعلق بالنساء والنسيب هو : " ذكر خلق النساء وأخلاقهن وتصرف أحوال الهوى به معهن " (٢) ٠

وعقب ابن رشيق الفيروانى بأن الغزل مخالف للنسيب كما رأى قدامة بينما التغزل هو المرافق للنسيب والتشبيبكلها بمعنى واحد قائلاً : والنسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد ٠٠ وأما الغزل فهو إلف النساء والتخلق بما يوافقهن ، وليس مما ذكرته فى شيء ، فمن جعله بمعنى التغزل فقد أخطأ وقد نبه على ذلك قدامة وأوضحه فى كتابه نقد الشعر" (٤) ٠وطرحاً للخلاف يؤثر تفضيل مصطلح الغزل فهى كما رأى أحمد بدوى لأنها أكثر استخداماً فى عصرنا الحاضر ، وإن كانت كلمة (النسيب) أكثر استخداماً لتدل على هذا الفن عند نقاد العرب وشعرائهم (٥)

وتعنى كلمة نسيب لغويا رقيق الشعر :" ونسب بالنساء ينسب وينسب نسباً نسيباً ومنسبة : شبب بهن فى الشعر وتغزل ..وقال شمر : النسيب رقيق الشعر فى النساء (٦) ، ومنه النسيب فى الشعر إلى المرأة ، كأنه ذكر يتصل بها ، ولا يكون إلا فى النساء " (٧)

ويعنى ذلك أن هذه المصطلحات الغزل والنسيب والتشبيب تعنى دلالياً عند المعجميين الحديث الخاص بالنساء فى الشعر أو النثر . أى التعبير عن معنى واحد ، كما ترد هذه الكلمات على ألسنة الشعراء بمعنى واحد أيضاً (٨) ، غير أن القدماء من النقاد اختلفوا فيها وميزوا بينها كما رأينا ، وإن رأوا أخيرا أنها بمعنى واحد كما ذكر ابن رشيق

ويقوم شعر الغزل (النسيب / التشبيب) على عاطفة الحب بين المحب ومحبوبته ، وسواء أكانت هذه العاطفة صادقة أو غير صادقة ، وصاحبها عاشقاً أو غير عاشق ؛ فإنها دافع للشعراء لإنشاء هذا الشعر ، ولم يشغل النقاد القدماء بصدق العاطفة أوعدم صدقها ، وإنما شغلوا بالمعنى من حيث هو معنى ، ومن حيث تأثيره فى النفس ودلالته على العاطفة القوية ، " فلا يعنيهم مثلاً من كثير أن يكون صادق العشق أو غير صادق بمقدار ما يعنيهم معنى شعره الذي أشعره ، وإدراك ما له من تحرك للنفس " (٩)

وركز النقاد على الصياغة اللفظية فى النسيب من حيث المفردات والتراكيب والصورة ، فيشير قدامة إلى وجوب الرقة واللطافة والقبول فى الألفاظ ولا يجوز الخشونة قائلاً : " ولما كان المذهب فى الغزل إنما هو الرقة واللطافة والشكل والدماثة كأنه مما يحتاج فيه أن تكون الألفاظ لطيفة مستعذبة مقبولة غير مسكرهة ، فإذا كانت جاسية كان ذلك عيباً " (١٠) ، ويشير حازم القرطابنى إلى ذلك قائلاً : " وأما النسيب فيحتاج أن يكون مستعذب الألفاظ حسن السبك حلو المعانى لطيف المنازع سهلا غير متوعر ،

وينبغى أن يكون مقدار التغزل قبل المدح قصدا لا قصيرا مخلا ولا طويلا مملا " (١١) ، وفى ذلك تركيز على خصائص التركيب دون المساس بالعاطفة .

غير أن بعض النقاد توخى صدق العاطفة فى الغزل ، ويظهر هذا الصدق فى قدرة الشاعر فى إجبار القارىء واقناعه بحسه وصدقه كما يقول قدامة بن جعفر " ... فيجب أن يكون النسيب الذى يتم به الغرض هو ما أكثرت فيه الأدلة على التهالك فى الصبابة وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة .. " (١٢) ،ويقول مؤكدا ذلك " ومما أختم به القول أن المحسن من الشعراء فيه هو الذى يصف من أحوال ما يجده ما يعلم به كل ذى وجد حاضر أو داثر أنه يجد أو قد وجد مثله حتى يكون الشاعر فضيلة الشعر " (١٣) ٠

****

وقد بدأ الغزل مع بداية الشعر العربى وليس بين أيدى الدارسين النماذج الأولى ؛ وإنما نجد القول فى الشعر الجاهلى مختلطاً بأغراض الشعر الأخرى الوصف والأطلال فى بداية القصائد ، ومن ذلك معلقة امرئ القيس التى يتحدث فيها عن محبوباته : ابنة عمه عنيزة وأم الحويرث وأم الرباب ، وحديث الأعشى عن محبوبته ٠

ويمكن تمييز الغزل الجاهلي إلي اتجاهين هما: اتجاه الغزل الحسي ، واتجاه الغزل العفيف ، وينقسم الحسي إلى نوعين : الفاحش وغير الفاحش ٠٠تناول الغزل الحسي وصف مفاتن المرأة من الوجه والرقبة والخصر ،وما ترتديه من زينة عند امرئ القيس والأعشى ٠٠وتناول الغزل العفيف الأوصاف المعنوية في عواطف صادقة ومشاعر ملتهبة عند شعراء ارتبط كل منهم بمحبوبة معينة ، عند المرقش الأكبر في أسماء ، والمرقش الأصغر في فاطمة ، وعروة بن حزام في عفراء ، وعنترة في عبلة (١٤) ٠

كما يقول أمرىء القيس :

وبيضةِ خدرٍ لا يرامُ خباؤُها متَّعت من لهوبها غير معجل

. . . .

مهفهفةٌ بيضاءَ غير مفاضةٍ ترائبها مصقولةٌ كالسجنجل

كبكرِ المقاناةِ البياض بصفرةٍ غذاها نميرُ الماء غير المحلل

تصدُ وتبدى عن أسيلٍ وتتقى بناظرةٍ عن وحش وجرةَ مطفل

وجيدٍ كجيد الرئمِ ليس بفاحشٍ إذاا هى نصَّته ولا بمعطل

وفرعٌ يزينُ المتن أسودَ فاحم أثيثٌ كقنوا النخلةِ المتعثكل

غدائرُها مستشذراتٍ إلى العلا تضلُ العقاصُ فى مثنى ومرسل

وكشحٍ لطيفٍ كالجديل مخصرٍ وساقٍ كأنبوبِ السقى المذلل

وتضحى فتيتُ المسك فوق فراشها نؤومُ الضحى لم تنتطق عن تفضل

وتعطو برخصٍ غير شثنٍ كأنهُ أساريعُ ظبيٍ أو مساويكُ إسحل

تضيءُ الظلامَ بالعشاءِ كأنها منارةُ ممسى راهبٍ متبتلِ (١٥)

ولقد شغل أكثر الشعراء فى العصر الجاهلى بوصف جسد المرأة دون رسم لأحاسيس الشعراء ناحتين تماثيل بوصفهم لبياض الجسد ونقاء البشرة وصفاء الأسنان وطول الشعر وعذوبة الريق وارتفاع العنق وسواد العينين والتفاتة الغزال ودقة الخصر وثقل الأرداف والترف والتطيب والكسل والدل والتثنى من صفات النساء (١٦) ٠

وخبا الغزل قليلاً مع الدعوة الإسلامية ليعود إلى الازدهار فى العصر الاموى بفعل عوامل عديدة سياسية واجتماعية واقتصادية وانقسم الى مدرستين أساسيتين :

١-الغزل اللاهى فى الحجاز.

٢-الغزل العذرى فى البادية.

١- الغزل اللاهى :..

انتشر فى الحجاز بين شباب الطبقة الأستقراطية لون من الحب اللاهى أبطاله شباب عاطلين فارغين مترفين وفتيات جميلات مترفات يتواعدون ويتلاقون ويكون الحب وعبارات الغزل ، ويحاول الشاعر أن يصف قصة هذا اللقاء وجمال محبوباته ، وإنما محبوبات كثيرات مترفات جميلات واشتهر من هؤلاء الشعراء : عمر بن أبى ربيعة والأحوص والعرجى .

٢- الغزل العذرى :

انتشر هذا النوع بين شباب بادية الحجاز حيث التقاليد العربية الصارمة وأبطاله من بنى عذره أو غيرها من القبائل ، والمحب يحب ابنة عمه وقد يحب فتاة أخرى من غير قبيلته ، وتبدأ سطور هذا الحب فى المراعى حيث يلتقى الفتيان والفتيات فى أيام الربيع ، ويرى المحب محبوبته بلقاء فيعلق بها ويعشقها ويشتد عشقه لها ،ويربط آماله وطموحاته بها ويجعلها مثلة الأعلى ؛ لكن ظروفاً ما تقف فى الطريق بينهما كالوشاة ؛ فيحرم المحب من محبوبته ويحول أهلها بينه وبين تزويجه بها فيشتد شوقه إليها وهيامه بها وحيرته ، ويسيطر خيال صاحبته عليه فى كل شىء ؛ فيعتل ويهزل ويهيم على وجهه فى القلوات حتى يسقط مينا حزيناً بعيداً غريباً محرماً٠٠ واشتهر فى هذا الحب عدد من الشعراء الذين تحدثوا عن هيامهم بمحبوباتهم دون الوصف الحسى وقد يرد الوصف لكن من خلال تذكره وتعلقه بمحبوبته ٠٠٠وارتبط ذكره باسم محبوبته : قيس بن الملوح وابنة عمه ليلى ، وقيس بن ذريح ولبنى ، وجميل بن معمر وبثينة (١٧) .

وفى العصر العباسى ظهرت أنواع أخرى من الغزل هى الغزل الماجن والصناعى مع استمرار الغزل اللاهى والعفيف .

ٍ ١- الغزل الماجن :

ففى الغزل الماجن يتواجد الشـــاعر المحب الماجن العابث الذى يحب القينة أو الأمة ، ويسـعى إلى الغلام والغلامة يقضـى معها أوقات اللهو والعبث ويطلق لسـانه فى الشـعر مصـــوراً ما وقع له فى خلواته من فحش وجراءة ، ومن هؤلاء الشـعراء :- بشـــار وأبى نواس ، والحسين بن الضحاك ، ومسلم بن الوليد (١٨) ٠

إلى جانب الغزل بالمذكر أو الغزل العابث الماجن بالمذكر ، وفيه يتغزل الشـــاعر بالمذكر والمؤنث على طريقة المجان فى العراق ، وذلك فى الشام عند الخالديان وكشاجم والوأواء وابن سكرة وابن الحجاج (١٩)٠

٢-الغزل الصناعي :

وفى الغزل الصـناعى تواجد الشـاعر الذى لا يكتب القصـائد الخالصـة فيالحب ، وإنما يذكر مقطعات للغزل ضـمن قصـائده وفى مقدماتها هذا الغزل تقليدى عاطفى يبتعد عن المجون والعبث واللهو ، ولا يذكر أعضـاء المرأة الحسـية ولا يصـف دقائق اللقاء ، ولا يتغزل بالمذكر وإنما أوصـاف الجاهلين من حيث الوصـف الحسـى المبسـط للوجه والعيون والريق فى سـهولة وبسـاطة ، وقد سـار على ذلك الفرزدق وجرير والأخطل فى العصـر الاموى ، ثم أبو تمام والبحترى وأبو فراس والشريف والرضى ومهيار الديلمي (٢٠) ٠

ومعنى ذلك أن الغزل العربى شهد ظهور عدد من المدارس :

١-المدرسـة التقليدية عند الجاهلين وبعض شـعراء بنى أمية كجرير والفرزدق وبعض شعراء العصر العباسى كأبى تمام والبحترى .

٢-مدرسة الغزل العفيف . (العذرى)

٣-مدرسة الغزل اللاهى

٤-مدرسة الغزل الماجن العابث بالمؤنث أو المذكر .

عمر بن أبى ربيعة

يمثل عمر بن أبي ربيعة نموذجاً رائداً لشــعر الغزل اللاهى فى العصــر الأموى ، فقد تجسدت فى شخصيته وشعره كل صفات هذا النوع من الغزل ، بل كان هو إفراز طبيعيً لبيئة هذا الغزل فى رفاهيتها واستقراطيتها ،

أولاً: حياته :

هو أبو الخطاب وأبو حفص عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة (أو عمرو) بن المغيرة بن عمر بن مخزوم من بنى قريش ، والده مخزومى وأمه امرأة من اليمن اسمها مجد فى الأغلب ولد عمر بن أبي ربيعة فى المدينة فى الليلة التى قتل فيها الخليفة عمر بن الخطاب عام ٢٣ هـــ / ٦٤٤ م ، وسمى باسم الخليفة عمر وكنى أبا الخطاب وأبا حفص وهما كنيتا عمر بن الخطاب ، وينسب إلى جده أبي ربيعة حذيفة لا إلى والده عبد الله (٢١) .

وتوفرت لعمر بن أبي ربيعة عدة ظروف قادته إلى هذا اللون من الشــعر ، فقد نشــأ فى المدينة فى بيت قرشي واسع الثراء ؛ فوالده كان تاجراً وصانعاً للنسيج ، فقد كان لآلى ربيعة مناسج فى اليمن خاصة تدر مالاً وفيراً ، واستعمله الرسول صلى الله عليه وسلم والياً على إقليم من اليمن يسمى الجند ، وظل فى عهد عمر وعثمان ، وفى أثناء حصار عثمان وقع والده من فوق راحلته فمات فآلت تجارة النسيج إلى والدته (٢٢) ،

وكان عمر جميلاً فدللته والدته وســاعدها فى ذلك ما ورثه عن أبيه من أموال وفيرة ، وتولت تعليمه ، فشــب عمر مثقفاً بكل العلوم التى كانت مألوفة فى عصره من القرأن الكريم والحديث الشــريف والفقه ورواية الأدب ، كما كان يعرف القراءة والكتابة ؛ ونتيجة لتدليل والدته فقد قضــى قســماً كبيراً من شــبابه منصــرفاً إلى اللهو والمغامرة والتعرف على النساء الجميلات المشهورات بالمكانة الاجتماعية أو بالصون والاحتجاب

، وساعده فى ذلك فراغه وجماله الأسر للفتيات ومال وفير ينفقه ٠ وكان حسن الثوب والهندام دائم التعطر رضى الخلق سهل المعاشرة جواداً عذب الحديث بصيراً بخطاب النساء مع شيء من الدعاية والمرح ٠

هذا إلى جانب مجتمع مترف أرستقراطى تتدفق عليه الأموال والعطايا حتى يخطف الذهب بريق أهله ، ويتضاعف عدد الرقيق والموالى والجوارى الأجنبيات الجميلات ، مع انتشار الغناء والمغنين كابن سريج والغريض وابن مسجح ؛ فامتلات بيئة الحجاز جمالاً وسحراً وغناء ، وكل ذلك شغل عمر وغيره بالحب والتغنى بالفتيات الجميلات المتدللات ، حيث يتصدى الشباب للفتيات ، وينصبون الشباك حولهن ، ويديرون رؤوسهن بعبارات الغزل فتكون اللقاءات والمواعيد والحب المتعدد الفتيات (٢٣).

وهكذا كان كل شىء فى حياته يهيء له السبيل للقيام بدور المحب الولهان فى حب لاه : شباب دائم لم يفارقه حتى يكبر، جماله الساحر الآخاذ الذى كان فتنة لفتيات عصره ، وغناه الواسع العريض الذى ورث جزءاً منه عن أبيه التاجر الموسر منذ أيام الجاهلية ، ثم قام ينميه ويضاعف منه ، وأم يمانية قامت على تربيته بعد وفاة أبيه ؛ فبالغت فى الاهتمام به وتدليله ، وتركت له الحبل على الغارب ؛ كما تفعل أم شابة غنية بوحيدها الصغير الجميل ، وعدد من الجوارى الجميلات حولن حياته ترفاً ونعيماً وفراغاً ومتعة ولهواً وحباً وغزلاً ، ومجتمعه المتحضر المترف اللاهى وما يتردد فيه من غناء وموسيقى وشعر وبدع الحب الذى كان يفرض سلطانه على الشباب والفتيات ، وحرية الاختلاط التى كانت تتيح لهم ولهن فرصا للغزل ونصب الشباك وإرضاء الحاجات (٢٤)

وقد ترك ذلك كله فى أواخر حياته وعكف على العبادة وتوفى فى خلافة الوليد بن عبد الملك فى اليمن فى حدود عام ٩٣ هـ / ٧١١ م .

ثانياً :شعره :

ترك ابن أبى ربيعة ديواناً ضخماً تخصص فى موضوع واحد هو الغزل اللاهى ، وهب له حياته كلها ؛ فهو الفن الوحيد الذى يناسب طبيعته ، عبر فيه عن نفسه وعن صويحباته ، ولم يقلد عمر أسلوب القصائد القديم ولا موضوعات الشعر القديم (٢٥) .

وهو يصور نفسه في شعره بصورة الفاتن الجميل الذى تقع الفتيات فى حبائل حبه ، فهو يتحدث عن صاحبته التى تحبه ويصور عواطفها له ، وما ملأ نفسها من حب له ، وهو يتدلل ، ويتمنع ويصد ويهجر ، وهى التى تتابعه وتلاقه ، وتبكى من أجله وتسهر الليالى من حبه ، وتشكو من الوشاة والعزال الذين يقفون فى طريق حبها . وهو بهذا يقوم بقلب صورة الغزل العربية من المحب إلى المحبوبة ؛ ليرضى غروراً ونزعة نرجسية تسيطر عليه (٢٦).

فهو يصف نفسه فى عيونهن بقوله :-

وأنها حلفت بالله جاهدة وما أهل له الحجاج واعتمروا

ما وافق النفس من شئ تسر به وأعجب بالعين إلا فوقه عمر

وأطلق معاصرو الشاعر على هذه الخاصية أنه كان يتغزل فى نفسه ، بدلا من أن يتغزل فى حبيبته حيث علق ابن أبى عتيق على قول عمر :

قالت : أتعرفن الفتى قلنا نعم قد عرفناه وهل يخفى القمر

وقال ابن أبى عتيق :" أنت لم تنسب بها، إنما نسبت بنفسك ، إنما كان ينبغي أن تقول : قلت لها ، فقالت لي ، فوضعت خدي فوطئت عليه " (٢٧)، وصويحباته عربيات كريمات من أسر عريقة مترفة جميلات ، حرات قرشيات ، تجمع بين جمال اللسان والعقل والجسم ، كريمات الأعمام والأقوال منعمات ، تضرب لها حمر القباب ، وتحتجب فى حجال الحرير ، يحيط بها حراسها (٢٨) .

ويتميز شعر عمر بن أبى ربيعة بعدة صفات :

* الميل إلى تخير الألفاظ الفصيحة العذبة ، وقد يخرج فيها على القياس اللغوى ؛ فقد كان يعبر عن المعنى الذى يجول فى ذهنه بأقرب الألفاظ تعبيراً عند الناس خاصة النساء منهم .

*الولوع بالمعانى البسيطة القريبة من الحياة اليومية .

*صدق العاطفة والتعبير عن النفس والتجارب التى يمر بها فى حياته .

* الميل إلى الأسلوب القصصى والحوار الصحيح خاصة الحوار الذى يدور فى العادة على ألسنة النساء .

* التوسع فى استخدام الكناية إلى جانب الصورة الاستعمارية والتشبيه . .

* اقتصار القصيدة على المعانى ، فانتهى بالقصيدة حيث كان ينتهى المعنى به فلكل قصيدة موضوع تام فى نفسه (٢٩) .

ثالثا : نموذج من شعره :

ولعل من أصدق القصائد على تلك الخصائص التى حواها شعره فيما يتصل به وبمحبوباته وشعره لفظاً ومعنى وعبارة وصورة تلك القصيدة التى يحكى فيها زيارة له قامت بها محبوبة من محبوباته وهى هند والتى مطلعها : (٣٠)

آذنت هند ببين مبتكر   وحذرت البين منها فاستمر

فهى تحكى قصة زيارة منها بعد إخبارها له بالافتراق ، وهى زيارة سبقها إعلام منها ساقه رسولها خفية بزيارتها خفية عن العيون ، وهنا استعد عمر للقاء خفية كذلك ، وفى ذلك تقديم للقصة وإبراز لنرجسيته فى قوله :

أرسلت هند إلينا ناصحاً   بيننا أيت حبيباً فقد حضر

فاعلمن أن محباً زائر   حين تخفى العين عنه والبصر

قلبك أقسى من حجر

(من الرمل)

آذنت هند ببينٍ مبتكرْ   وحذرتُ البينَ منها فاستمرْ
أرسلت هند إلينا ناصحاً   بيننا أيت حبيباً فقد حضر
فاعلمن أن محباً زائر   حين تخفى العين عنه والبصر
قلتُ أهلاً بكم من زائرٍ   أورثَ القلبَ عناءً وذكرْ
فتأهبتُ لها من خِفيةٍ   حين مال الليلُ واجتن القمرْ
بينما أنظرُها فى مجلسٍ   إذْ رمانى الليلُ منها بسَكَرْ
لم يرُعنى بعد أخذى هَجعةً   غيرَ ريحِ المسكِ منها والقطرْ
قلتُ مَنْ هذا فقالتْ هكذا   أنا مَنْ جَشَمْتَهُ طول السهرْ
ما أنا والحبُّ قدْ أَبْلَغَنى   كان هذا بقضاءٍ وقدرْ
ليت أنّى لم أكنْ علقتكمْ   كلَّ يومٍ أنا منكمْ في عِبَرْ
كلَّما توعدُنى تُخلفُنى   ثم تأْتِى حينَ تأتى بعُذْرْ
سَخِنَتْ عينى لئنْ عُدْتَ لها   لَتَمُدَّنَّ بحبلٍ مُنْبَترْ
عَمْرَكَ اللهُ أما تَرحمنى   أمْ لنا قلبُك أقسى من حجر
قلتُ لمَّا فرغت منْ قولِها   ودُموعى كالجمان المُنْحدِرْ
أنت يا قُرةَ عينى فاعلمى   عِنْدَ نفسى عِدل سمعى وبَصَرْ
فاتْرُكى عنك مَلامِى واعذرى   واتركى قولَ أَخى الإِفك الأَشِرْ
فأَذاقَتْنِى لذيذاً خِلتهُ   ذوبَ نحلٍ شِيبَ بالماءِ الخَصِرْ
ومُدامٍ عُتّقَتْ فى بابلٍ   مثلِ عينِ الديك أو خمر جَدَرْ
فتَقَضَّتْ ليلتِى فى نعمةٍ   مرَّة أَلْثَمُها غيرَ حَصَرْ

وأُفرّى مِرْطَهَا عن مُخْطَفِ ضامِرِ الأَحْشاءِ فَعْمِ المُؤْتَزَرْ

فَلهُونَا ليلنَا حتَّى اذا طَرَّبَ الدِّيكُ وهاجَ المُدَّكِرْ

حرَّكَتْنِى ثمَّ قالتْ جزعاً ودُمُوعُ العَينِ مِنها تَبْتَدِرْ

قُمْ صَفِيَّ النَّفْسِ لا تَفْضَحُنى قَدْ بَدا الصُّبحُ وذا بَرْدُ السَّحَرُ

فَتَولتْ فى ثَلاثٍ خُرَّدٍ كدُمَى الرُّهْبَانَ أو عِيِن البَقَرْ

لسْتُ أَنْسَى قَولَهَا ما هَدْهَدَتْ ذاتُ طوقٍ فوقَ غُصْنٍ منْ عُشَرْ

حينَ صَرَّمَتْ على ما كَرِهَتْ هكَذَا يفْعَلُ مَنْ كان غَدَرْ

معاني المفردات :

١–أذنت هند : أخبرت ، والبين : الفراق ، وفراق مبتكر : أى جاء بكرة

٢–إيت : زُر

٤– عناء : تعب

٥–اجتن القمر : اختبأ واستتر

٦–السكر : الحالة التى تعترض بين المرء وعقله لأسباب معينة ، وانظرها : انتظرها

والمعنى : أخبرتني محبوبتي هند بأنها ستفارقني في وقت قريب ، ومع خوفي من هذا الفراق فقد استمر فراقها طويلا ، وبعد فترة أرسلت هند إليّ رسولاً من عندها ينصحني بزيارتها ، ويعرفني بأنها ستزورني لإي وقت متأخر ، تقل فيه العيون ؛ فقلت للرسول أهلا وسهلا بالزائرة المحبوبة التي أتعبت قلبي بحبها وذكرها الدائم ، فأخذت أستعد وأتخفى عن العيون حتى جاء الليل ُم أخذتني حالة من السكر والغياب .

٧–لم يرعنى : لم يخفنى ، والهجعة : النوم الخفيف ، والقطر : العود الذى تتبخر به .

٨– جشمته السهر : كلفته إياه

١٠–علقتكم : أحببتكم

١٢–سخنت عينى : أى هاجت ، ١٣–والحبل المنبتر : المقطوع

١٤–الجمان : اللؤلؤ

١٥– عدل نفسي والبصر : أي مساوية ٠

١٦–الإفك : الكذب ، والأشر : المرح

والمعنى : أخذتني لحظة من النوم والسكر ،وسرعان ما أفقت منها على رائحة مسك طيبة ، وعود رائحة كانت تتبختر به ، وتتعطر به ، فوجتها أمامي ، فقلت : من هذا الذي الذي أرى ؟

قالت : أنا محبوبتك ، فقد أتعبتني في حبك ، وكلفتنى السهر للقياك ، مالي وللحب الذي أتعبني وأذلني ، إنما هو قضاء الله عليّ ، ليتني ما أحببتك وتعلقت بك ، فكل يوم وأنا في مشاق ومتاعب بسببه ، كلما وعدتني أخلفت الموعد ، وأكثرت من الأعذار ، لقد هاج دمع عيني ، فلئن عدت إلي ألإخلاف والوعود الكاذبة سأتركك وابتعد عنك ، أستحلفك بحياتك أن ترحمني ، إلا فما أقسى قلبك المخلوق من صخر ٠

قلت وقد فرغت من حديثها، وقد أنهمرت دموعها عللى خديها كاللؤلؤ : أنت قرة عيني ، وونفسي وسمعي وبصري ، لا تلوميني على ما بدر مني فلي عذري ، ودعك من كلام الكاذبين الذين يريدون الضك عليك ، ودعينا نستمتع بجلستنا هذه ٠

١٧–لذيذاً : أراد رضابا لذيذا ، وذوب النحل : كناية عن العسل ، وشيب : خلط ، والماء الخصر : البارد

١٨– بابل : اسم ناحية منها الكوفة والحلة ينسب إليها الخمر والسحر ، ومدام مثل عين الديك : أى صافية كعين الديك ، جدر : هى قرية بين حمص وسلمية وتنسب إليها الخمر . قال الأخطل :

كأننى شارب يوم استبد بهم ‏ ‏ ‏ من قرقف ضمنتها حمص أو جدر

١٩–الحصر : من لا يشتهى النساء٠

٢٠-أفرى : اشق ، والمرط : كساء من خز أو صوف والجمع مروط ، والمخطف : هو الخصر النحيل . وفعم : ممتلئ ٠ والمؤتزر : موضع الإزار ٠

٢١-طرب الديك : صاح فرجع صوته ومده وحسنه ، والمدكر : المؤذن والمصلى لله تعالى .

٢٢- تبتدر : تبدأ في النزول

والمعنى : لقد استمتعت بوقتي معها ، قبلتها فكان طعم رضابها لذيذا كالعسل الذي خالطه الماء البارد ، أو طعم خمرة معتقة صافية مثل عين الديك الصافية ، من صنع مدينة بابل أو من قرية جدر وهي قرية بين حمص وسلمية ، وشققت كساءها الخز ، فرأيت خصرها النحيل ، ممتلئا من موضع إزاره ، لقد لهونا حتى إذا صاح ديك الصباح ، وأذن المؤذن للصلاة ، وبدت تباشير الصباح ، حركتني فزعة خائفة وقد أغرورقت عيناها بالدموع، وقالت : قم وسر حتى نفترق ؛ حتى لا يتنبه لنا أحد فيفضني ٠

٢٤-الخرد : جمع خرود ، والخرود من النساء : البكر التى لم تمس ، وقيل : هى الحيية الطويلة السكوت الخفرة المتسترة ، والعين : عين البقرة الوحشية ٠

دمى : التماثيل

٢٥-هدهدت : قرقرت وهدرت . وذات الطوق : كناية عن الحمامة ، والعُشَر : بضم العين وفتح الشين : ضرب من الشجر .

والمعنى : قامت فسارت مع صاحبتيها ، وسرن ثلاث نساء جميلات بكور لم يمسسن ، يبدون كتماثيا الرهبان في الأديرة من بياض ملابسهن وحركتهن ، أو مثل أبقار الوحش في الصحراء لن أنسى هذا اللقاء أبدا ، ولن أنسى تصميمها على الرحيل وهو ما تكرهه ، كلما قرقرت حمامة ذات طوق على غصن شجر العشر ٠ لكن هذا هو غدر المحبوبات

٠التعليق :

تضـمنت هذه القصـيدة مضـمونا ، شـاركه فى إبرازه مجموعة من العناصـر الصـوتية والموسـيقية والمعجمية والتصـورية مسـتندة إلى رؤية واقعية تضـرب بجذورها فى القصـيدة وتحرك أطرافها ؛ وتعد القصـيدة دليلا صـادقا على تلك الخصـائص التى حواها شـعره فيما يتصل به وبمحبوباته وشعره لفظاً ومعنى وعبارة ٠

*فالقصـيدة تحكى قصـة زيارة محبوبة الشـاعر له بعد إخبارها له بالافتراق ، وهى زيارة سبقها إعلام منها ساقه رسولها خفية بزيارتها خفية عن العيون ، وهنا استعد عمر للقاء خفية كذلك ، وفى ذلك تقديم للقصة وإبراز لنرجسيته فى قوله في الأبيات (١–٦)

وتحضر المحبوبة فى منتصف الليل لتفاجىء الشـاعر بوجودها ، يدل عليها ريحها المعطر بالمسـك وعود البخور الذى تتبخر به ، وبمجرد وصـولها واسـتقرارها تشـكو السـهر فى حبه واللوعة فى فراقه واخلافه وعدها وتصـــفه بقســـوة القلب ، وتطلب الرحمة وهى صـورة مقلوبة للحب عند العرب فالمحب الرجل هو من يشـكو ذلك ولكن عمر تطمعه نرجسيته فى ذلك ٠٠في قوله في الأبيات (٧–١٣) ٠

ويجيبها فى حواره لها ، وهى دامعة العين وهو دامع العين كذلك بأنها محبوبته وقرة عينه ، ومعادلة سمعه وبصـــره ، وعليها أن تترك اللوم والعتاب وتعش لحظات اللقاء بين اللثم وشق المرط واللهو حتى تنتهى الليله فى قوله في الأبيات (١٤–٢١):

ومع بداية الصـباح ترحل المحبوبة ودموع العين تبتدرها ، وتودع الشـاعر تخرج بين فتاتين أخرين حتى لا تظهر وحدها ويفتضح أمرها وذلك فى قوله في الأبيات (٢٢–٢٦)٠

وجاءت هذه الزيارة فى أسلوب قصصى توافرت له عناصر القصة من شخوص المحب والمحبوبة ورسـول بينها وفتاتان تسـترانها ، وحدث متطور يتمثل فى الذهاب إليه والجلوس معه وملاعبته لها حتى الصباح ، والعقدة فى خوف الافتضاح ومعرفة الناس بهذه الزيارة

، والحل فى التخفي بين فتيات من الحى والزمان وهو الليل والمكان وهو مضـــارب قبيلته .

وتوافر للقصـــة الحوار المتواصـــل بينه وبينها ، ومن الحوار نتعرف على هدوئه وفرحته ، وعلى ضعفها فى حبه ، وتجشـمها الأهوال فى لقائه ، والحوار يناسـب المرأة ويقترب من لغة الحياة اليومية.

* هذا بالاضـافة الى وحدة الموضـوع فى وحدة اللقاء ودقة الوصـف وبسـاطة الألفاظ وصـحة التراكيب وحسـن العبارات وميل الشـاعر إلى الكنايات فى " أذاقتنا لذيذا " ، " ذوب العسـل " مع اهتمام بالتشـبيه فى " دموعى كالجمان المنحدر " مدام ،،، مثل عين الديك وغيرها مما يبين اهتمامه بالصورة الشعرية

****

هوامش الفصل الثالث :

١- لسان العرب ص ٣٢٥٢

٢- نقد الشعر ١٣٤

٣-لسان العرب ٢١٨١

٤- العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده ص ١١٧

٥- أسس النقد الأدبي عن العرب ص ١٣٩

٦- لسان العرب ص ٤٤٠٥ - ٤٤٠٦

٧- مقاييس اللغة ج ٥ ص ٤٢٤

٨- أسس النقد الأدبي عند العرب ص١٣٧

٩- - أسس النقد الأدبي عند العرب ص ١٤٠

١٠- نقد الشعر ص ١٩١

١١- منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص ٣٥١

١٢- نقد الشعر ص ١٣٤

١٣- نقد الشعر ص ١٣٦

١٤-انظر : مصطلحات نقدية ص ٣٥٩-٣٦٢

دراسات في الأدب الجاهلي ص ١٤٥-١٤٧

١٥- سليمان العطار : شرح المعلقات السبع٠ القاهرة دار الثقافة ١٩٩٤ م ص ٢٠ - ٢٧

١٦- محمود سامي الدهان: الغزل القاهرة دار المعارف ١٩٨١م ج١ ص٣٠

١٧- انظر : يوسف خليف : تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي٠ القاهرة دار الثقافة ١٩٧٦م ص٩٥-١٠٤

١٨- الغزل : ح ٢ ص ١٥

١٩-الغزل ص ٦٢-٦٦

٢٠-الغزل : ح ١ ص ٨٧ – ٩٣ ، ح ٢ ص ٤٨ – ص ٦١

٢١-عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي : الجزء الأول : الأدب القديم٠ بيروت دار العلم للملايين ١٩٨٤م ص ٥٣٥-٥٣٦

نفسه ج٢ ص٦٢-٦٦

٢٢-انظر : عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي ج١ ص٥٣٩

شوق ضيف : العصر الإسلامي ٠ القاهرة دار المعارف ١٩٨٩م ص٣٤٨

٢٣- يوسف خليف : تاريخ الشعر العربى ص ٦٨-٧٠

٢٤- يوسف خليف : تاريخ الشعر العربى ص ٧٦

٢٥- كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، نقله الى العربية : عبد الحليم النجار – القاهرة دار المعارف ١٩٨٣ م ح ١ ص ١٩١

٢٦- يوسف خليف : تاريخ الأدب العربى ص ٨٧

٢٧- المرزباني : أبي عبيد الله محمد بن عمران بن موسى (ت ٣٨٤هـ): الموشح مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، القاهرة نهضة مصر د،ت ٢٦١-٢٦٢

٢٨- يوسف نوفل : تاريخ الشعر العربي ص٧٨-٨٣

٢٩- عمر فروخ : تاريخ الأدب العربى ح ١ ص ٥٣٧ – ٥٣٨

٣٠- عمر بن أبي ربيعة : ديوان عمر ابن أبي ربيعة بشرح وتقديم : عبد أ . على مهنا بيروت دار الكتب العلمية ١٩٨٦ م ص ١٦٦ – ١٦٨

الفصل الرابع

الفخر

تعني كلمة فخر لغويا العِظَم والقِدَم والتَّمدح بالخصـــال والافتخار كما يقول صـــاحب اللســـــان : " الفَخْر والفَخَرُ ٠٠والفُخْر والفخـار والفِخِّيَري والفِخِّيراء : التمـدح بالخصـــال والافتخار وعد القديم ؛ وقد فَخَرَ يفخر فخرا وفَخْرَةً حســـنة .. فهو فاخر وفخور ... والتَّفاخُر: التعاظم ٠والتَّفَخر : التعظم والتكبر ...وفاخره مفاخرةً وفِخَارا: عارضه بالفخر ففخره " (١) وكما يقول ابن فارس : " الفاء والخاء والراء أصل صحيص ، وهو يدل على عِظَم وقِدَم ٠ من ذلك الفخر ٠ ويقولون في العبارة عن الفخر : هو عد القديم ، وهو الفخر أيضا " (٢) ٠

والفخر باب من أبواب الشعر العربي الغنائي ظهر منذ ظهر الشعر الجاهلي وهو كما يقول صـاحب العمدة " والافتخار هو المدح نفسـه ، إلا أن الشـاعر يخص به نفسـه و قومه ، وكل ما حسـن في المدح حسن في الافتخار ، وكل ما قبح فيه في الافتخار " (٣) ، وفي الفخر وســـيل لذكر الفضـــائل النفســـية في الذات والأهل والقبيلة والوطن والأحســـاب والأنســـاب والآباء ، وما ذكروا من أمجاد في الفروســـية والكرم وتفاخر بالقبيلة وما لها من أيام وبطولات ومكارم..

ويفرق حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) بين المدح والفخر بأن المادح يمكن أن يصف ممدوحه بالحســـن والجمال ، بينما المفتخر فلا يقبل منه ذلك قائلا: "فأما الفخر فجار مجري المـدح ، ولا يكـاد يكون بينهمـا فرق إلا أن الافتخـار مـدح يعيـده المتكلم علي نفســـه أو قبيله ، وأن المادح يجوز له أن يصـــف ممدوحه بالحســـن والجمال ولا يســـوغ للمفتخر أن يصف نفسه بذلك " (٤)٠

والفخر باب واسـع في الشـعر العربي ، فهو يضـم أنواعا هي : الفخر الذاتي ، والفخر الحزبي السياسي ، والفخر الديني ، والفخر الحربي ٠

ويدور الفخر الذاتي حول تعداد الفضـائل النفسـية الخاصـة بالذات من شـجاعة وكرم وعقل وعفة تخص الشاعر في نفسه وفي قبيلته وفي آبائه وأجداده ، والفخر الحزي يدور حول النط برأي الحزب ومبادئه والدفاع عنه ،ونشر تعاليمه ،

وهو يرى شوقي ضيف أن هذا النوع هو الحماسة ، وقد تأصل هذا اللون في لحظات القتال من حرب الأوس والخزرج ،وحرب داحس والغبراء وعبس وذبيان ، إلى حرب البسوس إلى الفتوحات الإسلامية . وأما الفخر الديني فخر بمبادئ الدين الإسلامي في لحظات الفتوحات (٥) .

والحماسة تسجيل لمآثر قوم الشاعر وحروبهم وانتصاراتهم ، والدفاع عنهم وتهديد عدوهم ، وتسجيل محامدهم وأخلاقهم الطيبة ، وهي باب من أبواب الفخر خصوصا والشعر العربي عموما .

وقد وضعت في الأدب العربي كتب للمختارات الأدبية تحمل عنوان " الحماسة " (٦) ، وكان أول باب فيها عن الحماسة ، كاستفتاح جمالي للأبواب الأخرى ، ومن هذه الكتب

١-ديوان الحماسة لأبي تمام : حبيب بن أوس الطائي (ت٢٣١هـ) .

٢-الحماسة للبحتري : الوليد بن عبيد الطائي (ت٢٨٤هـ) .

٣- حماسة الخالدين : أبي بكر محمد بن هاشم (٣٨٠هـ) ، أبي عثمان سعيد بن هاشم (ت٣٩١هـ)

٤- الحماسة الشجرية لابن الشجري :أبو السعادات هبة الله بن علي بن حمزة (ت٥٤٢هـ)

٥-الحماسة البصرية للبصري : علي بن الفرج بن الحسن البصري (ت ٦٥٩هـ) .

ويشترط في الفخر عدة صفات كالمدك تماما منها :

*التركيز على الفضائل المعنوية والنفسية بفضائل : المدح والشجاعة والعدل والعفة .

* توخي الصدق ، وأن يكون الفخر بالآباء صادقا على الأبناء كما رأى ابن رشيق في تعليقه على رأى قدامة ؛ فقد علق قدامة على قول أيمن بن خزيم في بشر بن مروان :

يابن الذَّوائبِ والذُّرى والأرؤس   والفرعِ من مُضَرِ العَفرنيِ الأنفس

يابن المكارمِ من قؤيشٍ ذا العُلى   وابن الخلائفَ وابنَ كل قَلَمَّس

بقوله : " فما في هذه الأبيات شئ يتعلق بالمدح الحقيقي وذلك أن كثيرا من الناس لا يكونون كآبائهم في الفضل ، فلم يصف هذا الشاعر غير الآباء ، ولم يصف الممدوج بفضيلة في نفسه أصلا " (٧) ·

وقد استحسن ابن شيق هذا الرأى مؤكدا مبدأ الصدق في الفخر في قوله : " وقد أنكر قدامة أن يمدح الإنسان بآبائه دون أن يكون ممدوحا بنفسه ؛ لأن كثيرا من الناس لا يكونون كآبائهم ، والذي ذهب إليه حسن " (٨) ·

* حسن الصياغة اللفظية في اختيار المفردات والتراكيب والصور الخيالية ·

*****

وقد بدأ الفخر مع بداية الشعر الجاهلي ثم تطور مع العصر الإسلامي والأموي والعباسي وأن قل بعد ذلك عن العصر الجاهلي.

وتميز الفخر في العصر الجاهلي بذاتية وجماعية ، فقد فخر الشاعر بنفسه وبشجاعته وبحسبه ونسبه ، ثم لجأ إلى الفخر بقبيلته في مواقف المنافرة في الأسواق والتي تقوم بأن يدافع شاعر محكم عن أحد سيدين متخالفين فينفره علي خصمه ومنازعه ويفضله عليه مبينا ماله من فضائل وحسنات ، وفي مجالس الأدب .

وقد افتخر الشاعر بعدة صفات نفسية هي الكرم والعطاء والشجاعة والآباء و الشرف والترفع عن الفحشاء والعفو عند المقدرة والوفاء وتلبية المكروبين وحماية الكل ونجدة الملهوف وإغاثة المكروبين ، وظهر ذلك على ألسنة الصعاليك ، والفرسان والأمراء وشعراء البلاط (٩) ·

ويري النقاد أن أجود قصيدة افتخر فيها شاعر هي قصيدة السمو أل بن عاديا اليهودي ، فقد جمعت ضروب الممادح وأنواع المفاخر. ويقول فيها مفتخرا:

إذا المرء لم يدْنس من اللؤمِ عرضهَ

فكللُّ رداءٍ يرتديه جميلُ

وإنْ هو لم يحملْ علي النَّفس ضيمها

فليس إلى حُسنِ الثناءِ سبيلُ

يقَرِّبُ حبُ الموتِ آجالنا لنا

وتكرهَهُ آجالهُمْ فتطولُ

وما مات منا سيدٌ حتْفَ أَنْفِهِ

ولا طُلَّ منا حيثُ كان قتيلُ

صَفَونَا فلمْ نكْدِر وأخلص سِرُّنا

إناثٌ أطابتْ حَمْلنا وفُحُولُ

عَلونا إلى خيرِ الظُّهورِ وحَطَّنا

لوقتٍ إلى خيرِ البطونِ نزولُ

وهو فخر بالذات والقبيلة في آن واحد (١٠)

في العصر الأموي اصطبغت الحياة بالصراع السياسي علي الحكم بين الأحزاب السياسية :الشيعة والخوارج والزبيريين والأمويين ، وانقسم الشعراء بين هذه الأحزاب يتحمسون لها ويدافعون عنها ، ويفتخرون بها ، فقد تحزب قطري بن الفجاءة وعمران بن حطان والطرماح بن حكيم وعمرو بن الحصين للخوارج والكميت الأسدي للشيعة ، وابن قيس الرقيات للزبيريين ، جرير والفرزدق

والأخطل للأمويين ، ومن ذلك فخر الكميت بن زيد الأسدي بالشيعة في قوله :

فهُمُ الأُسدُ في الوغى لا اللواتي

بين خيس العرينِ والآجامِ

اسد حرب غيوث جدب

بهاليلُ مقاويلُ

غير ما أفدامِ

سادةٌ ذادةٌ عن الخردِ البيـ

ضِ إذا اليومُ صارَ كالايامِ

لا كعبدِ المليك أو كوليـدٍ

أو سليمانَ يعدُ أو كهشام (١١)

وانتقل الفخر في العصر العباسي انتقالة جديدة بفعل التطور الحضاري وامتزاج الثقافات والاتجاه إلي العقل والاهتمام بالعلوم والفلسفة وشيوع المناظرات ، وهنا دار الفخر حول العقل والرأي والحكمة وحول الانفلات والتحرر والشجاعة والتحرر والأصل العريق في الحضارة والرقي والزخرفة الخلاقة مثل فخر بشار بأصوله الفارسية وإظهار نزعته الشعوبية:

هلْ منْ رسولٍ مخبرٍ عنّي جميع العربٍ

بأَنني ذو حسب عالٍ علي ذي الحسْب

جَدي الذي أسمو به كسري وساسان أبي (١٢)

****

أبو الطيب المتنبي :

أبو الطيب المتنبي شاعر عربي كبير ، بل هو أشعر شعراء عصره والشعر العربي قاطبة ، وأشهر شعراء الفخر ، فقد ملأ الدنيا بشعره وفخره ومديحه في سيف الدولة وكافور ، وشغل النقاد فاختلفوا فيه مدحا وقدحا وتوسطا بين الأمرين .

وفي هذه الصــــفحات أحاول التعرف علي حياته وشــــعره متوقفا أمام إحدى روائع شعره بالتحليل.

أولا: حياته :

هو أبو الطيب أحمد بن الحسـين بن عبد الصـمد الجُعْفيّ من بني جعفر بن جعفي بن سعد العشيرة بن مُذْحِج من اليمن عرب الجنوب وولد عام ٣٠٣هــ /٩١٦ م في حي كندة في الكوفه (١٣) ، وقتل عام٣٥٤هـ/٩٦٥م.

ولا يعرف الكثير عن أسرته عن أبيه غير أنه كان يلقب بالسقاء أو عن والدته ولا عن أهلها رغم كثرة فخره بنســـبه ، وقد فســـر د. طه حســـين فخره بأنه نوع من الإزدراء للكائدين عليه والمرجفين به والمؤلبين عليه.

ويقول: "…. فقد اتهم الرجل في نسبه ، وسئل عن أبيه وجده فلم يستطيع أو لم يرد أن يجيب ســـائليه ، وآثر أن ينتســـب إلي المجد والكرم والبأس وأن يزدري الكائدين له والمرجفين به والمؤلبين عليه " (١٤) .

وتلقي المتنبي علومه الأولي في الكوفة ، ثم غادرها مع أبيه بســـبب صـــلة والده بالقرامطة ، وتلقي علومه في بعلبك وطرابلس واللاذقية من حصون الشام …

وفي الكوفة تمكن من علوم اللغة ؛ فحفظ غريبها وحواشيها وأشعار الجاهلية وغيرهم ، واشـتهر بالفصـاحة والبلاغة ، وتأثر بآراء الشـيعة خاصـة الغلاة منهم بالقرامطة وكان طويل اللسان مستعدا للسخرية والهجاء (١٥) وفي الكوفة بدأت محاولاته الأولي في قول الشعر.

ويرجع سـبب تسـمية المتنبي إلي أنه أثار في بعض نواحي حمص فتنة بين الأعراب حيث طلب منهم الامتناع عن دفع الضـرائب ، فقبض عليه لؤلؤ والي حمص وأودعه السجن في أواخر سنة ثلاث وعشرين أو أوائل سنة أربع وعشرين ، وكان في بادية الشـام يتنبأ بسـقوط المطر ويتنبأ بالأخبار أي يقول بها قبل حدوثها ، ويقال أنه ادعي النبوة فأطلق عليه لؤلؤ لفظ المتنبي (١٦)... وأحاطت بهذه التسمية أساطير كثيرة (١٧)

وفي تلك الفترة نظم المتنبي شعره الموسوم بشعر الصبا في أغراض كثيرة متنوعة في المدح والحكمة والفخر ويغلب عليه الغموض والتكلف (١٨) ٠

واتصل المتنبي بسيف الدولة الحمداني عام ٣٣٧هـ ، وانضم إلي بلاطه مادحا إياه نظير ثلاثة آلاف دينار في العام علي ثلاث قصـائد سـوي ما يكن له ، وكان لا يمدح سيف الدولة إلا جالسا ولا يقبل الأرض تحت قدميه ، وقد أثار ذلك حسد نظرائه من الشـعراء ، وقد انتهت هذه الصـلة عندما رمي سـيف الدولة بدواة كانت في يده ؛ فأصابت المتنبي بجرح في وجهه ، فغضب وغادر حلب عام ٣٤٦هـ متوجها إلي مصر لمدح واليها كافور الإخشيدي (١٩) ، غير أنه لم يحصل من كافور علي شئ إلا الوعود البراقة فاغتاظ ، وهجا كافور بقصيدة طويلة وغادر مصر متوجها إلى الكوفة ومنها إلى بغداد.

وفي عام ٣٥٤هـ سار المتنبي إلي شيراز لمدح عضد الدولة البويهي ، فمر في طريقة بأعراب البادية ، فخرج له رجل يقال له فاتك الأسـدي ويقال إن المتنبي سـبق وأن هجاه فقطع عليه فاتك طريقه انتقاما منه وطمعا في ماله ، ولما حاول المتنبي الفرار ذكره غلامه بقوله:

الخيل والليل والبيداء تعرفني

والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فارتد يقاتل حتى قتل في مكان يقال له الصافية قرب النعمانية عند دير العاقول علي نحو ميلين من الضواحي الغربية لبغداد (٢٠) .

وتمتاز شخصية المتنبي بالطموح البعيد والعصبية الشديدة وتعاظم النفس وكراهية السود وحب الفروسية والشجاعة وبعد التفكير واتساع المعرفة وكان وفيا عفيفا النفس واليد (٢١) .

تناول المتنبي كل أغراض الشعر العربي تقريبا في عصره ، غير أنه أكثر في الفخر والمديح ، وهما يغلبان عليه ، واهتم بالحكمة ونثرها في كل قصائده ، وأجاد الوصف والشعر الوجداني الخالص (٢٢) ، وحوى شعره الفلسفة والحكمة ما جري علي ألسنة الناس مجري الأمثال (٢٣) .

وتميز شعره في كل ذلك بالدقة في اختيار الألفاظ ، وفخامة الأسلوب ، والإكثار من المعاني ، وضرب الامثال للمبالغة ، والاهتمام بالصور الخيالية والبراعة فيها فهو غني في تشبيهاته البارعة واستعاراته الأنيقة واتباع أهل الشام في التأنق في التعبير (٢٤).

ثانيا: شعره:

مر شعر المتنبي بمراحل متعددة تطور فيها حتي بلغ الغاية القصوي التي أسرت مقلديه ، وأثارت حفيظة معاصريه وحساده. فمرحلته الأولي كانت بالكوفة حيث كان ينشد شعرا تقليديا يسيطر عليه الغموض وضعف التراكيب ، ومرحلته الثانية كانت في اتصاله ببلاط سيف الدولة وفيها برع المتنبي في وصف الحروب والمعارك والمدح ، وتحرر من التكلف والغموض وجري في شعره علي السليقة ، وتدفق شعره حماسا وفخرا ، وكان أكثر ارتجالا غزيرا في مادته سريعا في بديهته (٢٥) .

ومرحلته الثالثة كانت اتصاله بكافور الإخشيدي في مصر حيث بلغ شعره الغاية في النضج ، وكثرت فيه الحكم والأمثال المضروبة ، وخلا من التعقيد والتكلف ، وفي هذه المرحلة برع المتنبي في شعر الغناء ، وبدأ يخص نفسه بشيء من الشعر لم يشرك فيه أحدا بمدح أو هجاء

وكان قبل ذلك يجعل الشعر قسمه بينه وبين الممدوح (٢٦) .

ومن ذلك فخره بنفسه :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق من جراها ويختصم

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وشغل المتنبي أهل عصره وما بعد عصره ، وانقسم الناس حوله فريقين: فريق يمدحه ويبين ما فيه من مميزات... "مطنب في تقريظه ، منقطع بجملته ، منحط في هواه بلسانه وقلبه ، يتلقى مناقبه إذا ذكرت بالتعظيم ويشيع محاسنه إذاحلبت بالتفخيم.." ٠ وفريق يذمه ويبين ما فيه من عيوب وهو "...... عائب يروم إزالته عن رتبته ، فلم يسلم له فضله ، ويحاول حطه عن منزلة بوأها إياها أدبه ، فهو يجتهد في إخفاء فضله وإظهار معايبه" (٢٧) ٠ ويضاف إليهما فريق ثالث حاول التوسط بينه وبينهما. ولذلك كثرت الكتب حول أدبه مدحا وقدحا فمن ذلك:

١- أبو الطيب المتنبي: ماله وما عليه. تأليف : أبو منصور الثعالبي القاهرة (محمد علي عطية) ١٣٣١هـ - ١٩٥١م .

٢- الوساطة بين المتنبي وخصومه ٠تأليف : علي بن عبد العزيز الحرجاني – تحقيق وشرح محمد أبي الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي – القاهرة دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م .

٣-الرسالة الختامية في ما وافق المتنبي في شعره كلام أرسطو في الحكمة ، تأليف أبي علي الحاتمي. بيروت المطبعة الكاثوليكية ١٩٣١م .

٤-الإبانة عن سرقات المتنبي لفظا ومعني لأبي سعيد محمد بن أحمد العميدي – القاهرة (المطبعة العباسية) د.ت

٥-الكشف عن مساوئ المتنبي للصاحب بن عباد. تحقيق محمد حسن آل ياسين. بغداد (مكتبة النهضة) ١٩٦٥م .

٦- الاستدراك في الأخذ علي مآخذ الكندية من المعاني الطائية لضياء الدين بن الأثير (ت٦٣٧هـ) ، وهو كتاب نقد ألفه أبو. محمد سعيد بن المبارك الدهان ت٥٦٩هـ في سرقات المتنبي من أبي تمام (٢٨) .

ثالثا :ديوانه:

ترك المتنبي ديوانا شعريا ضخما نال عناية كبيرة من الشراح لتفسير شعره وغريبه وأمثاله ، فقد شرحه ابن جني (ت٣٩٢هـ) في ثلاثة أجزاء فقد بعضها وهو أطول الشروح ، وشرحه أبو القاسم إبراهيم بن محمد الخليلي (ت٤٤١هـ) ، وشرحه الأعلم الشنتري ، وشرحه أبو العلاء المعري ت٤٤٩هـ ، وشرح ابن سيده (ت ٤٥٨هـ) مشكله في كتاب: " شرح المشكل من ديوان المتنبي " ، وشرحه الواحدي (ت ٣٦٨هـ) طبع برلين ١٨٦١م ، وشرحه العكبري (ت ٦١٦هـ) في كتاب "شرح التبيان من ديوان أبي الطيب " وطبع بتحقيق مصطفي السقا وإبراهيم الإبياري الحلبي ١٣٥٥هـ ٠٠ وغيرهم (٢٩) ٠

****

في معاتية سيف الدولة

للمتنبي (٣٠)

واحَرَّ قَلْبَاهَ مِمَنْ قلبهُ شَبِمُ   وَمَنْ بجسْمِي وحَالي عِنْدَه سَقَمُ

مالِي أُكْتُمُ حبًا قدْ يري جَسَدِي   وتَدَّعي حبَّ سيفَ الدَّولةِ الأُممُ

إنْ كانَ يجمعَنَا حبٌّ لِغُرَّتِهِ   فلَيْتَ أنَّا بِقَدْرِ الحُبِّ نَقْتَسِمُ

قدْ زُرْتُهُ وسيوفُ الهندِ مُغْمَدَةٌ   وقدْ نظرْتُ إليهِ والسُّيوفُ دمٌ

فَكانَ أَحْسَنَ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِمِ   وكانَ أحْسنَ ما في الأَحْسنَ الشِّيَمِ

فَوْتُ العدُو الذي يَمَّمْتَه ظَفرٌ   في طَيِّهِ أَسَفٌ في طَيِّهِ نِعَمُ

قدْ نَابَ عنك شديدُ الخوفِ واصطنعتْ   لكَ المهابةُ ما لا تصْنَعُ البُهَمُ

أَلْزمْتَ نفسك شيئًا ليس يلْزمُها   أنْ لا يُوَارِيَهُمْ أرْضٌ ولا عَلَمُ

أَكُلمَّا رُمْتَ جيشًا فانْثَني هربًا   تَصرَّفتْ بِكَ في آثاره الهِمَمُ

عليْكَ هَزْمُهُمُ في كلِّ مُعْتَرَكِ   وماعليكَ بِهِمْ عارٌ إذا انْهَزَمُوا

أما تَرَي ظَفَرًا حلْوًا سِوَي ظفرٍ   تصافَحَتْ فيه بِيضُ الهندِ واللِّمَمِ

يا أعْدَلِ الناسِ إلاّ في مُعامَلَتِي   فيكَ الخِصَامُ وأَنْتَ الخَصْمُ والحَكَمُ

أُعِيذَها نظراتٍ منكَ صادقةٌ   أنْ تحسبَ الشَّحْمَ فيمن شحمُه ورمُ

وما انْتفاعُ أخي الدنيا بِنَاظِرِهِ   إذا اسْتوتِ عنْدَه الأَنْوارُ والظُّلَمُ

أنا الذي نظَرَ الأَعْمَى إلى أدَبِي   وأَسْمَعتْ كَلِمَاتِي مَنْ به صَمَمُ

أنامُ مَلءَ جُفُونِي عُنْ شواردِها   ويَسْهرُ الخلقُ جرَّاها ويَخْتَصِمُ

وجَاهلٍ مدَّهُ في جَهله ضَحِكي   حتَّى أَتَتْهُ يدٌ فرَّاسةٌ وَفَمُ

إذا نَظَرْتَ نُيُوبَ اللَّيثِ بارزةً   فلا تَظُنَّنَّ أنَّ الليثَ مُبْتَسِمُ

ومُهْجَةٍ مُهْجَتِي مِنْ هَمَّ صاحِبها   أَدْرَكْتُها بجَوَادٍ ظَهْرُهُ حَرَمُ

رِجْلاهُ فِي الرَّكضُ رِجلُ واليدان يد وفِعْلهُ ما تريدُ الكفُ والقدمُ

ومُرْهَفٍ سرتُ بين الجَحْفلين به حتي ضربتُ وموجُ الموتِ يلتطمُ

فالخيلُ والليلُ والبُيْدَاءُ تعرفني والضَّرب والطّعنُ والقرطاسُ و القلمُ

صحبتُ فِي الفلواتِ الوحشَ منفردًا حتى تعجَّبَ مِنِّي القُورُ والأكَمُ

يا مَنْ ينعِزُّ علينا أَنْ نُفَارِقَهُمْ وجدانُ ُا كُلَّ شيءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمُ

ما كانَ أخْلَقَنا مِنْكم بتكْرِمة لو أنَّ أمْرُكُمُ من أمرِنا أمَمُ

إنْ كان سَرَّكُمُ ما قال حاسدُنا فما لِجُرْحٍ إذا أَرْضاكُمُ أَلَمُ

وبيْننا لو رعَيتمْ ذاك مَعْرِفَةٌ إنَّ المعارفَ في أهْلِ النهي ذِمَمُ

كَمْ تطْلبُونَ لنا عَيْبا فَيُعْجِزُكُمْ ويكرَهُ اللهُ ما تأْتُونَ والكرمُ؟

ما أبْعَدَ العيبَ والنُّقصانَ عن شَرفِي أنا الثُّريا وذَانِ الشَّيْبُ والهَرَمُ

ليتَ الغمامُ الذي عِنْدي صَوَاعِقُه يُزِيلُهنَّ إلى مَنْ عِنْدَهُ الدّيَمُ؟

أَرَي النَّوى تقتضِينِي كلَّ مرْحلَةٍ لا تسْتَقل بها الوَخَّادةُ الرُّسُمُ

لَئِنْ تركءنَ ضَمِيرًا عنْ مَيَامِنِنا لَيَحْدثَنَّ لمن ودَّعْتُهُمْ نَدَمُ

إذا ترَحَّلتُ عن قومٍ وقدْ قدَرُوا أنْ لا تُفَارِقَهُم فالرَّاحِلونُ هُمُ

شَرُّ البلادِ بلادٌ لا صَدِيقَ بها وشَرُّ ما يَكْسِبُ الإنسانُ ما يَصِمُ

وشَرُّ ما قَنصتْهُ راحَتِي قَنصٌ شُهْبُ البُزَاةِ سواءٌ فيه و الرَّخَمُ

بأيّ لفظٍ تقولُ الشِّعرَ زِعْنِفَةٌ تجُوزُ عِندكَ لا عُرْبٌ ولا عَجَمُ

هَذَا عِتَابُكَ إلا أَنَّهُ مِقَةٌ قَدْ ضُمِّنَ الدُّرَّ إلاَّ أنَّهُ كَلِمٌ

معاني المفردات :

١–واحر قلباه : ما أشحد حرارة قلبي ، وهو غير جائز عند الكوفيين ٠الشيم : البارد: والشبم: البرد ، وقد شبم (بالكسر) فهو شبم : والشبم : الذي يجد البرد مع الجوع. قال حميد بن ثور:

بعيني قطاميّ بما فوق مرقب غدا شَبِما ينْقضُّ فوق الهجارس

المعني يقول : واحر قلبي واحتراقه ، واستحكام همه بمن قلبه عني بارد لا اعتناء له بي: ولا إقبال علي ، ومن بجسمي وحالي من إعراضه سقم يوجب ألمهما ، وشكاة تؤذن باختلالهما ، والعرب تكني بحرارة القلب عن الاعتناء ، وببردة عن الإعراض والترك ، وتلخيص المعني قلبي حار من حبه ، وقلبه بارد من حبي ، وأنا عنده مختل الحال ، معتل الجسم .

٢-أكتم : مبالغة في الكتمان : وبري جسدي : أنحله وأضناه ، الأمم : الشعوب

المعني يقول : لأي شيئ أخفي حبه ؟ وغيري يظهر أنه يحبه ، وهو بخلاف ما يضمر ، وأنا مضمر من حبه ، ما يزيد مضمره علي ظاهره ، ومكتومه علي شاهده ، والأمم تشركني في ادعاء ذلك ، بقلوب غير خالصة ، ونيات غير صادقة ، فينحل جسمي بقدمي في صدق وده ، وتأخري فيما يخصني من فضله.

٣-الغرة : الطلعة .والوجه الحسن : الأغر.

المعني يقول : إن حصلت الشركة في حبه فحظي وافر.

وقال أبو الفتح : يحتمل وجهين أحدهما : إن كان يجمعنا من آفاق البلاد المتباعدة حب لغيرته ، فليت أنا نقتسم بره: كما نقتسم حبه ، والآخر إن كان يجمعني وغيري أن أكون أنا وهو محبين له ، فليت حظي منه ، مثل حظي من المحبة له ، كقولك : أنا وفلان تجمعنا الكتابة والقراءة ، كلانا من أهلها. وتلخيص المعني : إن كان يجمعنا حبه والكلف بمودته ، فليت أنا نقتسم المنازل عنده بقدر ما نحن عليه من محبتنا الخالصة ، وما نعتقده من مودتنا الصادقة فلا يبخس المخلص حقه ولا يبذل للمتصنع برة.

١- المعني يقول : قد خدمته في حالتي السلم والحرب والسيوف دم ، أي مخضبه بالدم . يريد : أنه شهده في شدائد الحرب ، وقد جربه في الضيق والسعة ، وامتحنه في الأمن والخوف فأعجبه كيف تقلب ، وأحمده علي أي حال تصرف.

٢- الإعراب : فيه تقديم وتأخير ، والتقدير : وكان الشيم أحسن ما في الأحسن.
الغريب الشيم : جمع شيمة ، وهي الخليقة ، تقول : شيمة زيد الكرم ، أي خليقته وخلقه.
المعني يقول : لما بلوته في حالته كان أحسن الخلق ، وكانت أحسن ما فيه ، فكان في جميع أحواله أحسن خلق الله شاهدا ، وأكرمهم ظاهرا ، وكان أحسن من ذلك شيمه المختبرة وأخلاقه المستحسنة.
٦- الإعراب : الضمير في (طيه) الأول عائد علي الظفر ، وفي الثاني عائد علي الأسفالغريب : يممته : قصدته ، والأسف : الحزن . والظفر : الفتح والظهور علي العدو، والنعم جمع نعمته ، تقول: نعمته ونعم وأنعم ونعمات.
المعني يريد : أنه اتبع بعض ملوك الروم ففاته ، يقول ، فوت العدو الذي قصدته فقر عنك لاستحكام جزعه ، ظفر ظاهر ، واستعلاء بين ، وإن كان ذلك الظفر في طيه منك أسف علي ما حرمته من إدراكه ، وفي طي ذلك الأسف نعم بها صرف الله عنك مؤنة الحرب ،وشدة معاناة اللقاء ، وحفظ عسكرك من جراح أو قتل ، ففي هذا نعم من الله كثيرة.
٧- المهابة : شدة الفزع. والبهم : جمع بُهْمَة وهو البطل الشجاع يستبهم على قرنه وجه غلبته والجمع الأبطال ، الواحدة : بهمة ، وهم الذين تناهت شجاعتهم ، ويقال للجيش ، بهمه . منه قولهم : فلان فارس بهمه.
المعني يقول قد ناب عنك خوف العدو لك ، فذعره وهزمه ، صنعت لك فيه مهابتك ، وبلغت لك مخافتك ما لا تصنعه الشجعان.
٨-ألزمت نفسك : عاهدت نفسك ، وقيدتها ، ويواريهم : يسترهم ويكنهم. العلم: الجبل الطويل الوعر المسلك. ومنه قول الخنساء:

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

المعني يقول : قد ألزمت نفسـك مالم يكن يلزمها ، وكلفتها ، ما لا يحق عليها ، من أن عدوك لا يواريهم أرض تشـتمل عليهم ، ولا يسـترهم عنك جبل يحول بينك وبينهم ، وهذا غاية التكلف. أي : لقد عاهدت نفسـك على أن تطول العو في كل مكان ؛ فلا تخفيهم عنك أرض أيا كانت ، ولا جبل طويل وعرة مسالكه .

٩-رمت : أردت ، الهمم : جمع همة عزيمة وإرادة .والمعني : يريد : أنه متي ما هزم جيشا حملته همته العالية ، على اقتفاء آثارهم ، وهذا استفهام إنكاري . يريد : كلما فر جيش من جيش الروم ، وولي عنك هاربا ، تصرفت بك همتك في أثره ، فلم يرضك انهزامهم دون أن ينالهم القتل ، ويستحكم فيهم السيف. أي إن همتك العالية وعزيمتك الجبارة لا تترك الجيوش المهزومة تفر دون أن ينل منها سيفك البتار .

١٠- المعترك : متلقي الحرب.

المعني يقول : عليك أن تهزمهم إذا التقوا معك في حرب ، ولا عار عليك إذا انهزموا ، فتحصنوا بالهرب ولم تظفر بهم . المعني : لا عار عليك أن يغلبهم خوفك ، فيهزموا دون قتال ، ويفرقوا دون لقاء ،إشفاقا منك.

١١- الظفر : النصر .تصافحت : تلاقت بالصفاح وهي السيوف. بيض الهند : السيوف . واللم : جمع لمة وهي الشعر إذا ألم بالمنكب. أي شعر الرأس المجاوز شحمة الأذن ، ويقصد الرقاب المجاورة لها ، على سبيل المجاز المرسل .

المعني يقول : ليس يحلو لك ظفر تناله ، أمل في عدوك تبلغه ، إلا أن يكون بعد مصادمة وقتال ومجادله ونزول وبعد مصافحه سيوفك رءوسهم ، وتباشر سلاحك خيولهم ، فهذا هو الظفر الحلو عندك ، أي : إن نصرك هو أن تقابل العدو في الميدان وتمعن فيهم قتلا وقطعا للرقاب ، وغزهاقا للأرواح .

والمعنى العام في الأبيات (١-١١) :

يوجه المتنبي قصيدته إلى سيف الدولة الحمداني في جمع من العرب ، وفي ظروف معينة وهي تأخر المتنبي عن مدح سيف الدولة ، واستعانة الأخير بمن هو أقل منه ،ممن لا خير فيه ، مع تعرض سيف الدولة له مرة بعد مرة في مجلسه ٠٠٠مما ترك عند المتنبي ضغوطا نفسية أثرت في موضوع القصيدة ٠فقد بدأ القصيدة ببيان بحبه الشديد لسيف الدولة ، وحرارة قلبه في هذا الحب ؛ بينما برودة معاملة سيف الدولة ، وبرودة قلبه ، وهذا مأأثر على اعتلال جسمه وضعفه ، قائلا : أحبك ياسيف الدولة ، وتقابل حبي البرود ، والإهمال وشتان بين حبي وبرودك ، ومن الغريب أن من حولك يظهر حبك ويكتم بغضك ، وأنا هم نشترك في هذا الحب ، غير أنك لأا تقابلنا جمعا بمثل هذا الحب ، فأنت تقابل حبهم المصطنع بالبر نوتقابل حبي الصادق بالبرود والتجافي ٠ لقد خدمتك ياسيف الدولة في السلم والحرب ، وفي أيام السعة وأيام الضيق وخبرتك ؛ فوجدتك أحسن خلق الله خُلقا وخَلقاالإي أخلاقك الطيبة وفي كرمك ٠ ففي وقت الحرب ، وجدت العدو الذي تقصده يهرب قبل تلاقيه وفي هذا نصران : نصر هزيته ونصر الحفاظ على جندك ، وهذه نعم الله عليك ، لقد هزمهم خوفهم منك فهربوا ن وحقق الرعب نصرا لم تحققه الأبطال المغاوير ، غير أنك قد عاهدت نفسك على متابعتهم أينما كاكانوا في أرض ووراء كل جبل وعر ، فإرادتك تلزمك بملاحقتهم ،اقتفاء آثارهم وإعمال السيف فيهم ، ولا يقر لك قرار حتى تقطع رقابهم بسيفك وسيوف جيشك ٠

١٢- الخصام : المخاصمة . والخصم يقع علي الواحد والجماعة . الحكم ك القضاء بالحكم ٠ قال الله تعالي (وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب).

المعني يقول : لسيف الدولة : يا أعدل الناس في أحكامه ، و أكرمهم في أفعاله ، إلا في معاملتي ، فأنت تخرجني من عدالتك ، ويضيق علي ما قد بسط من فضل ، فيك خصامي وتعبي وأنت خصمي وحكمي ، فأنا أخاصمك إلي نفسك واستدعي عليك حكمك ٠ قال أبو الفتح : هذه شكوي مفرطة ٠٠٠٠ وإذا كان عدلا في الناس كلهم إلا في معاملته فقد وصفه بأقبح الجور وقد وصفه بثلاثة أوصاف مختلفة بقوله (فيك الخصام) أي أنت تختصم وأنت الخصم وهو غير مختصم فيه ، وأنت الحكم ، وليس الحكم أحد الخصمين ، ولا بالشئ الذي يقع فيه الخصام والمعني : أنت الحكم لأنك ملك لا خاصمك إلى غيرك والخصام وقع فيك.

١٣- الإعراب : قال أبو الفتح : سألته عن الهاء : علي شئ تعود؟ فقال : علي النظرات . الشحم : من الحيوان الدهن الأبيض ٠ويقصالثمين من الناس ويكني به عن الشاعر المتمكن ٠ الورم : الانتفاخ في العضو ، من ألم يصيبه. ويقصد بالورم المتشاعر وليصس بشاعر ٠

المعني يريد أن نظرتك صادقة إذا نظرت إلى شئ عرفته علي ما هو عليه فلا تغلط فيما تراه ولا تحسب الروم شحما وهذا مثل يريد لا تظن المتشاعر شاعرا كما يحسب السقم والورم سمنا. أي ياأعدل الناس قل لي بربك أيهما أشعر الشاعر الخبير المتمكن مثلي ، أم المتشاعر الذي تفضله علي ؟

١٤- الأنوار : يقصد الخبير من الشعراء ، الظلم : يقصد المتشاعرين ٠

المعني : يقول وما ينتفع أخو الدنيا بنظره ، ولا يعود عليه فائدة بصده ، إذا استوت عنده الصحة والسقم والأنوار والظلم.والمعني يجب أن تميز بيني وبين غيري ممن لم يبلغ درجتي كما تميز بين النور والظلمة . يا أعدل الناس ما الذي تستفيده إذا لم تميز بيني وبين غيري من أنصاف الشعراء ٠

١٥- الأعمى : يقصد أبا العلاء المعري ٠ به صمم : فقدان حاسة السمع ٠المعني يريد أن شعره سار في آفاق البلاد ، واشتهر حتى تحقق عند الأعمى والأصم ، فكأن الأعمى رآه لتحققه عنده ، وكأن الأصم سمعه : أنا الذي شاع أدبي واستبان موضعي فثبت ذلك في العقول وتمكن في القلوب ورآه من لا يبصر وأسمعت كلماتي من لا يسمع ٠وكان المعري إذا أنشد هذا البيت قال : أنا الأعمى. ٠٠أي أنا ذلك الشاعر المتفوق الخبير ، والذي نال شهرة بين الناس حتى سمعه من لا يسمع وتحقق رؤيته من لم يرى ، وليس هؤلاء المتشاعرين الذين تفضلهم علي ٠

١٦- ملء جفوني : هو موضع المصدر أي أنام نوما ملء جفوني كقولك قعد القرفصاء أي القعدة التي هي كذلك والضمير في (شواردها) للكلمات.

قال أبو الفتح : يحتمل أن يراد بالكلمات جمع كلمة التي هي اللفظة الواحدة وهذا أشد في المبالغة من غيره ويجوز أن يعني الكلمات القصائد وهم يسمون القصيدة كلمة.

الشوارد : النوافر من قولهم : شرد البعير : إذا نفر ٠ ويقال فعلت ذلك من جراك أي من أجلك ومن جلالك ومن إجلالك ومن جرائك مشدد ة٠

المعني يقول : أنام ساكن القلب ، متمكن النوم لا أعجب بشوارد ما أبدع ، = ولا أحفل بنوادر ما أنظم ، ويسهر الخلق في تحفيظ ذلك ،ويختصمون في تعرفه وتفهمه فأستقل منه ما يستكثرون وأغفل عما يغتنمون.

أي وشعري مشهور معروف بين الناس يحفظه المعجبون به ، ويتدارسه النقاد ، وأنا لا أدي بذلك ، ولا اهتم بذلك ٠

١٧- الفرس: دق العنق سمي الأسد فراسا ، ويقصد الافتراس : القتل ٠ويقصد هجاءه له وتشويهه وإثبات جهله بالشعر ٠

المعني يقول رب جاهل خدعه تركي له في جهله وضـحكي منه حتي افترسـه بعد زمان فأهلكه ، فأنا أرضـي عن الجاهل حتي أهلكه ، فرب جاهل اغتر بمجاملتي ومسـامحتي إياه وضـحكي علي جهله حتي سـطوت به ففرسـته وغضـبت عليه فأهلكته. ٠٠ أي كثير من المتشـاعرين الجهلاء يعرضـون بي ولا اهتم بهم ، فغذا حان وقت الغضـب هجوتهم وقضيت على شعريتهم المزعومة

١٨- النيوب: جمع ناب والليث: الأسد

المعني يقول : إذا كشر الأسد عن نابه ؛ فليس ذلك تبسما، وانما هو قصد للافتراس٠ وهذا مثل ضربه يعني أنه وإن أبدي بشر للجاهل فليس هو رضا عنه ، فإن الليث إذا كشر لا تظنه متبسما وإن ذلك أقرب لبطشه وأداة غلي هلكته ٠أي إن صبري على هؤلاء المتشـاعرين ومجاراتهم حتى الانتقام مثل صـبر الأسـد وتكشـيره الذي لا يظن ابتساما وإنما نذير بالانتقام٠

١٩- مهجة : الروح ٠هم : عزم جواد : حصان: والمعنى : رب إنسان طلب نفسي كماطلبت نفسه ، أدركتها علي جواد ظهره حرم ، لأمن راكبه لانه لا يقدر عليه فكأنه في حرم. يقول أدركت منه ما أراد أن يدرك مني قتلي فقتلته وظفرت به ووصـف جواده (البيت بعده).

٢٠- المعني يقول : هو صـحيح الجري ، يصـف استواء وقع قوائمه ، وصحة جريه ، فكأن رجليه رجل واحده لأنه يرفعهما معا ويضـعهما معا ، وكذلك اليدان وهذا الجري يسـمي النقال والمناقلة وفعله ما تريد الكف بالسـوط والرجل بالاسـتحثات فهو يجربه يغنيك عنهما؟

والمعنى في البيتين : إن روحي حرة لا تقبل الضـيم ، وصـلتها كروح جواد حر صـحيح الجري يجري بطريقة النقال حيث يرفع يديه معا ورجليه معا ٠

٢١- المرهف: السيف الرقيق الشفرتين والجحفلان: الجيشان العظيمان وروي ابن جني وغيره بين الموجتين أراد: موجتي الجيش لانهما يموج بعضهم البعض.

المعني يقول : رب سيف رقيق الحدين سرت به بين الجيشين العظيمين حتى قاتلت به والموت غالب تلتطم أمواجه ويضطرب بحره واستعار الموج لكتائب الحرب. وأنا محارب أجمع إلي بلاغة الكلم ، فروسية الفارس المحارب ،وسط الجيوش المتحاربة كالأمواج المتضاربة .

٢٢- البيداء : الفلاة البعيدة عن الماء .والقرطاس : الكتاب فيه الكتابة وجمعه قراطيس .الطعن القتل في البطن .

المعني : يصف شجاعته وجلادته ، وأن هذه الأشياء لا تنكره وهي تعرفه لانه من أهلها يقول: الليل يعرفني لكثرة سراي فيه وطول إدراعي له ، وتعرفني االخيل لتقدمي في فروسيتها ، والبيداء تعرفني بمداومتي لقطعها واستسهالي لصعبها والحرب والضرب يشهدان بحذقي بهما وتقدمي فيهما ، والقراطيس تشهد لإحاطتي بما فيها والقلم عالم بإبداعي فيما يقيده .

أي وباختصار شديد أنا أجمع بين فروسية الفارس الخبير بالخيل وبركوب أهوال الليل ، وبالحروب والقتل والطعن والضرب ، وشاعرية الشاعر الملم بالكتابة والبراعة بغبداع المبدع الفنان .

٢٣- الفلوات : جمع فلاة وهي الصحراء . الوحش : الحيوانات المفترسة . القور بالراء وضم القاف فهو جمع قارة وهي الأكمة . والأكم : مفردها أكمة ، وهي التل . قيل هي حرة وهي اللآبة وجمعها : لوب كأكمة وأكم

والمعني يقول : قد سافرت وحدي فلو كانت الجبال تتعجب من أحد لتعجبت مني لكثرة ما تلقاني وحدي فصحبت الوحش في الفلوات منفردا بقطعها مستأنسا بصحبة حيوانها حتي تعجب مني سهلها وجبلها وقوزها وأكمها.

أي وأنا ذلك الشجاع ، كثير الاسفار و الذي تعود على مصاحبة الصحراء بوحشها وجبالها وتلالها .

ومعنى الأبيات العام (٢١-٣٢) :

بعد أن مدح سيف الدولة بأحد عشر بيتا افتخر بنفسه بمثلها قائلا: يا أعدل في غيري ، وأكثر ظلما لي ، إني في حيرتي فيك أنت الظالم لي وأنت في نفس الوقت القاضي ، قل لي بربك من الأشعر الشاعر : الخبير المتمكن مثلي ، أم المتشاعر الذي تفضله عليّ ؟ ، وما ذا يجدي لديك إذا لم تميز بيني وبين غيري من أنصاف هؤلاء الشعراء . لني أعرفك أنني ذلك الشاعر المتفوق الخبير ، والذي نال شهرة بين الناس حتى سمعه من لا يسمع وتحقق من شعره لم يرى ، وليس هؤلاء المتشاعرين الذين تفضلهم علي . وشعري مشهور معروف بين الناس يحفظه المعجبون به ، ويتدارسه النقاد ، وإذا ما عرض بعض المتشاعرين ممن حولك فلا اهتم بهم ، وعندما يحين وقت الغضب هجوتهم وقضيت على شعريتهم المزعومة ، وصبري عليهم ومجاراتهم حتى الانتقام مثل لا تقبل الضيم ، كروح جواد حر صحيح الجري . وأنا محارب أجمع إلي صبر الأسد وتكشيره الذي لا يظن ابتساما وإنما نذير بالانتقام . وروحي حرة بلاغة الكلم ، فروسية الفارس المحارب ،وباختصار شديد أنا أجمع بين فروسية الفارس الخبير بالخيل وبركوب أهوال الليل ، وبالحروب والقتل والطعن والضرب ، وشاعرية الشاعر الملم بالكتابة والبراعة بغبداع المبدع الفنان ، وصاحب الأسفار والخلوات في الفيافي الصحراء والوحوش.

٢٤- المعني يريد : يا من يعز علينا مفارقته بما أسلف إلينا من فضله واستوفرناه من الحظ بقربه وجداننا كل شئ طائل بعدكم عدم لانسر به ومختقر لا نبهج له يريد لا يخلفكم أحد. يا سيدي يعز علي مفاقتكم ، فأنتم الخير والفضل ولا خير بعدكم .

٢٥- ما أخلقه بكذا وأقمنه . وأجدره : أولاه. والأمم : القصد وهر أمر بين أمرين لا قريب ولا بعيد.

المعني يقول ما أخلقنا ببركم وتكرمتكم وإثاركم لو أن أمركم في الاعتقاد لنا علي نحو أمرنا في الاعتقاد لكم ، وما نحن عليه من الثقة بكم. أي نتمنى أن يكون بركم لي ٠

٢٦- سر: أسعد ٠ الحاسد : المتمني زوال النعمة عن غيره ويقصد الواشي الذي أفسد العلاقة بينه وبين سيف الدولة ٠

المعني : يقول إن كان ما فعله الحاسد لنا ، واختلقه الواشي بيننا مرضيا لكم عندكم ٠فما يتشكى الجرح إذا أرضاكم مع شدة وجعه ، ولا يكره مع استحكام ألمه حرصا علي موافقتكم وإسراعا الي ارادتكم ٠أي وماذا أفعل وقد تمكن الوشاة والمغرضون من إفساد علاقتي بك وأوغروا صدرك مني ، سأصبر على ألم جفوتكم كما يصبر الجرح على وجعه ٠

٢٧- النهي : العقول والمعارف جمع معرفة : والذمم: والعهود واحدها: ذمة.

المعني يقول : إن لم يجمعنا الحب فقد جمعتنا المعرفة ، وأهل العقل يراعون حق المعرفة ، والمعارف عندهم عهود وذمم لا يضعونها ، فبيننا وسائل المعرفة ولنا إليكم شوافع المحالفة ٠٠إن أحسنتم المراعاة والمعارف عند أمثالكم من ذوي العقول الراجحة والأحلام الموافرة ذمم لا يضيع حفظها. أي ولكنك لم تراع فيّ محبتى لك ، وتراع ما بيننا من عهود وذمم ، يعرفها أصحاب العقول

٢٨-المعني يقول : انتم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم وجوده ، هذا تعنيف لسيف الدولة علي إصغائه إلي الطاعنين عليه ، يطلبون لنا عيبا تغضون به عينا ، وتصنعون إلي الطاعن منهم علينا فيما ينقل إليكم ذلك ، ويكره الله ما تأتون من ذلك ويسخطه ، ويكرهه الكرم الذي يلزمكم الإنصاف والعدل ويوجب عليكم المحافظة والعقل. أي ومن الغريب أنه رغم ما يقوله الواشون في ، فلا يوجد لي عيب تستندون إليه ، وهذا من فضل الله علي ومن اخلاقي الطيبة ٠

٢٩–ذان : إشـــارة إلى العيب والنقصـــان ٠الثريا: معرفة هي أنجم مجتمعة ٠ والهرم : الكبر والعجز.

المعني أنا بعيد عن العيب والنقيصة كبعد الثريا من الشيب والكبر ، فكما لا يلحقها الشيب والهرم فأنا كذلك لا يلحقني العيب والنقصان فما أبعد العيب والنقصان عن شرفي ورفعته وعرضي وسلامته. أي والحمد لله لا عيب ولا نقص عندي حتي يجعلك تهملني وتهتم بغيري ممن هو دوني ٠

٣٠– الغمام : السحاب ٠والصواعق: جمع صاعقة وهي قطعة من نار تسقط بأثر الرعد الشديد ويقال : صعقه والديم : جمع ديمة وهي مطر يدوم مع سكون.

المعني يقول : يشير إلى الممدوح معنفا له علي إصغائه إلي الطاعنين عليه أي ليت هذا الملك الذي يشبه الغمام بجوده ويخلفه بعقله الذي عندي صواعقه: يريد ما يلحقه من الأذي ممن حوله يزيل تلك الصواعق إلي الحاسدين فيشاركوني في بؤسه كما يشاركوني في فضله ٠ والمعني ليته أزال الشر الذي عندي إلى من عنده النفع ٠ أي وكنت أتمنى منك أيها السيد الكريم الذي يشبه الغمام بجوده ير على الحاقدين والحاسدين بدلا من الانصات إليهم ٠

٣١– النوي : البعد والوخد والرسم : ضربان من السير. والوخادة من الإبل التي تسير واحداها : رسوم وراسم.

المعني : يكلفني البعد عنكم قطع كل مرحلة لا تقوم بقطعها الإبل المسرعة أري النوى التي أريدها والرحلة التي أعتقدها تقتضي تجشم كل مرحلة وافية ، لا تستبدل بها الأبل لبعد منالها و لا تطيقها لشدة أهوالها٠ أي وإذا اضطررت للرحلة بعيدا عنكم ، فإنني سأتحمل مشاقا تتحملها الإبل المسرعة ٠

٣٢- الإعراب ليحدثن اللام: لام جواب القسم وترك جواب الشرط فإنهما إذا اجتمعنا كان الجواب للقسم وترك جواب الشرط ومثله قوله تعالي (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الاذل) ٠وفي الكتاب العزيز مثل هذا كثير.

ضمير : جبل علي يمين طالب مصر من الشام وهو قريب من دمشق. ميامننا على يميننا

المعني يقول : إن قصدت مصر ليحدثن لمن ودعتهم ندم علي مفارقتي لهم ، وأسف علي رحيلي عنهم يشير بذلك إلي سيف الدولة أنه يندم علي فراقه فكان كما قال ٠ أي وأقسم بأنني لو تركت الشام متجها إلى مصر ، فسوف تندم ياسيف الدولة على رحيلي عنك ، وسوف تتأسف على هذا الرحيل ٠

٣٣- ترحلت : رحلت وذهبت إلى مصر ٠

المعني يقول إذا سرت عن قوم وهم قادرون علي إكرامك بارتباطك حتى لا تحتاج إلى مفارقتهم فهم المختارون للارتحال ، يشير بهذا إلى إقامة عذره في فراقهم أي أنتم تختارون الفراق إذا أجأتموني اليه. أي وإذا تركتني أرحل من بلادك ياسيدي ، قاصدا مصر ٠ ٠فهذا يعني موافقتك الضمنية على ذلك ، وهذا مسوغ لي على ترك الشام متجها إلى مصر ٠

٣٥/٣٤- يصم : يعيب. والوصم: العيب. وجمعه: وصوم والوصم: الصدع في العود من غير بينونة. قنصته : اصطدته ، القنص : الصيد ٠ البزاة : جمع بازي وهو النسر والشهب : الأبيض ٠ والرخم : جمع رخمة، وهو طائر أبقع يشبه النسر في الخلقة ، يقال له الأنوق.

المعني يقول : شر البلاد بلاد لا يوجد فيها من يؤنس بوده ، ويسكن إلي كريم فعله ، وشر ما كسبه الإنسان ما عابه وأذله . يريد: أن هبات سيف الدولة وإن كثرت مع جلالتها وسعتها ، لا تعادل تقصيره في حقه ، وإيثاره لحساده ، وشر ما قنصه الصائد وظفر به ،

قنص يشركه فيه البزاة الشهب مع رفعتها ، والرخم مع سقاطها ودناءتها ، يشير بذلك إلي أن ما وهبه من بره ، وأظهر عليه من إحسانه وفضله ، شاركه فيه من حساده أهل الغباوة ، ونازعه فيه أهل العجز والجهالة. والمعني إذا تســـاويت أنا ومن لا قدر له في أخذ عطائك ، فأي فضـــل لي عليه ، وما كان من الفائدة كذا ، فلا أفرح به. أي يا سيدي لا فائدة من وجودي هنا في قصرك ، مادمتَ منصتا للحساد والوشاة ، وعطاؤك هذا ليس فضلا طالما تساويتُ فيه مع من هم دوني مع المتشاعرين .

٣٦- الغريب : زعنفة : بكسر الزاي ، وجمعه زانف ، وهم اللئام السقاط من الناس ، وهو مأخوذ من زعنفة الأديم ، وهو ما سقط من زوائده.

المعني يقول لسيف الدولة : بأي لفظ تقول الشعر أراذل الناس ، لا عرب ولا عجم؟ يريد : ليست لهم فصاحة العرب ولا تسليم العجم ، فليسوا شيئا.

وقال الواحدي: يقول هؤلاء الخساس اللئام من الشعراء ، بأي لفظ يقولون الشعر ، وليست لهم فصاحة العرب ولا تسليم العجم ، والفصاحة للعرب ، فليسوا شيئا . أي فوجودي هنا لا طائل منه سط مجموعة ممن لا يحسنون الشعر ،وليست لهم فصاحة العرب ، وجودي بينهم إقلال من شأني

٣٧-المقة: المحبة والود . والكلم: لا يكون أقل من ثلاث كلمات ، والكلام قد يقع علي الكلمة الواحدة ، لأنك لو قلت لرجل: من ضربك ؟ فقال : زيد ، لكان متكلما ، فالكلام يقع علي القليل والكثير ، فالكلام ما أفاد وإن بكلمة ، والكلم : جمع كلمة .

المعني يقول : هذا الذي أتاك من الشعر عتاب إليك ، وهو محبة ، لأن العتاب يجري بين المحبين ، وهو در حسن نظمه ولفظه إلا أنه كلمات. والمعني هذا عتابك ، وهو وإن أمضـــك وأزعجك ، محبة خالصـــة ، ومودة صـــادقة ، فباطنه غير ظاهره ، كما أنه قد ضمن الدر لحسنه وإن كان كلما معهودا في ظاهر لفظه. أي وعذرا سيدي على ما قلته لك ، فهو عتاب من محب صغته في هذا الكلام الجميل ردا على ما أراه حولي .

ولما أنشـــد هذه القصــيدة وانصـــرف ، وكان في المجلس رجل يعاديه ، فكتب إلى أبي العشــائر علي لســان ســيف الدولة كتابا إلى إنطاكية ، يشــرح له فيه ذكر القصــيدة ، وأغراه به ، فوجه أبو العشائر عشرة من غلمانه ، فوقفوا قريبا من باب سيف الدولة في الليل ، وأنفذوا إليه رسولا علي لسان سيف الدولة فلما قرب منهم ، ضرب رجل منهم بيده إلي عنان فرسه ، فسل أبو الطيب السيف ، فوثب عليه الرجل ، وتقدمت فرسه به ، فعبر قنطرة كانت بين يديه وأصاب أحدهم فرسه بسهم فانتزعه ، واستقلت الفرس به ، وتباعد بهم ليقطعهم من مدد إن كان لهم ، ورجع إليهم بعد أن فني نشـــابهم ، فضــرب أحدهم بالسـيف ، فقطع الوتر وبعض القوس ، وأســرع الســيف في ذراعه ، فوقفوا علي صــاحبهم المجروح ، وســار وتركهم ، فلما يئســوا منه قال أحدهم : نحن غلمان أبي العشائر ، فحينئذ قال:

ومنتسب عندي إلي من أحبه   وللنبل حولي من يديه حفيف

<u>والمعنى العام في الأبيات (٢٤-٣٧)</u> : هي في العتاب حيث يقول :

يا سيدي في نيتي مفارقتكم إلى بلد آخر ، يعز علي مفاقتكم ، فأنتم الخير والفضل ولا خير بعدكم ،كل ما أتمناه بركم لي ،لكني ماذا أفعل وقد تمكن الوشــاة والمغرضــون من إفســاد علاقتي بك ؛ فتركتني وعرضــت بي أمام مجلســك ، غير أني ســأصــبر على ألم جفوتكم كما يصـــبر الجرح على وجعه ٠يا ســـيدي لم تراع فيّ محبتى لك ، وما بيننا من عهود وذمم ، واستمعت إلى ما يقوله الواشون في ، رغم أنه لا يوجد لي عيب يستندون إليه ، وهذا من فضـــل الله علي ومن أخلاقي الطيبة ؛ فالحمد لله لا عيب ولا نقص عندي حتي يجعلك تهملني و تفضـــل عليّ غيري ممن هو دوني ،كنت أتمنى منك أيها السيد الكريم أن ترد على الحاقدين والحاسدين بدلا من الإنصات إليهم ٠

يا سيدي لا مقام لي هنا ،وإذا اضـطررت للرحلة بعيدا عنكم ، فإنني سـأتحمل مشـاقا تتحملها الإبل المسرعة ، وأقسم بأنني لو تركت الشام متجها إلى مصر ، فسوف تندم وتتأسف على هذا الرحيل ، إذا تركتني أرحل من بلادك

٠٠فهذا يعني موافقتك الضــمنية على ذلك ، ولا فائدة من وجودي هنا في قصــرك ، مادمتَ منصتا للحساد والوشاة ، وعطاؤك لي يتساوى فيه هم دوني مع المتشاعرين والوشاة ٠إن وجودي هنا وسط مجموعة ممن لا يحسنون الشعر ،وليست لهم فصاحة العرب إقلال من شـأني ؛ فاعذرني ياسيدي على ما قلته لك ، فهو عتاب من محب صغته في كلام جميل ردا على ما أراه حولي ٠

التعليق علي القصيدة :

هذه القصيدة تقدم لك مضمونا ساعدت في إبرازة عناصر الموسيقي والمعجم الشعري والتراكيب والصورة والرؤية الواقعية :

*فعلي مستوي المضمون تركز القصيدة علي ثلاثة أفكار رئيسية :

١- مدح سيف الدولة (١-١١)

٢-فخر المتنبي بنفسه (١٢-٢٣)

٣-عتاب سيف الدولة والتعريض بالوشاة (٢٤-٣٧)

وهو تقسيم غريب حيث ساوى بين مدحه (١١بيتا)لسيف الدولة وبين مدحه لنفسه فخرا (١٢) ، وجعل بيقية القصيدة عتابا ساوى فيه بين نفسه وبين سيف الدولة ،وكانه بهذا يجعل القصيدة فخرا بنفسه ٠

وقد استهل مقدمة القصيدة بقوله :

واحَرَّ قَلْبَاهَ مِمَنْ قلبهُ شَبِمُ ومَنْ بجسْمِي وحَالي عِنْدَه سَقَمُ

في إيماء بأن القصيدة مقابلة بينه وبين سيف الدولة ، مما يجعل باطن القصيدة ومعناها الضارب يكمن في التفاخربنفسه ، فيفخر المتنبي بنفسه علي حساده وعوازله من الشعراء الذين استأثروا بحب سيف الدولة دون أن يحبوه وابتسموا له ، واضمروا عدواتهم له ، بينما المتنبي يحبه ويخلص له ولا يجيد التصنع ، ودسوا له علي المتنبي ، فتغيرت معاملته له ، رغم أنهم لا حظ لهم من إجادة الشعر ولا مرتبة عندهم ، فهم من ذوي الأصول الغير عربية التي لاتجيد فن الشعر ،

ويصـل المتنبي بفخره أيضـا علي سـيف الدولة في إيحائه بأن رحيله عنه سـوف يكون منقصة شديدة في قصره ، وعلي هذا الأساس فقد قسم الشاعر قصيدته إلى هذه المحاور الثلاثة :

ففي المحور الأول يتحدث فيه عن علاقته بسـيف الدولة ويقول إنه يحب سـيف الدولة بقلبه ويفني بجسمه بحبه ، بينما سيف الدولة لا يأبه به ويكتم هذا الحب عن الناس بينما غيره يظهرون حبا ويكتمون غدرا ، وهذا الحب هو الذي دفعه إلى مدح سـيف الدولة بمجموعة القيم والمدائح ؛ فسـيف الدولة أحسـن الناس خلقا أكرمهم ظاهرا ، وقد عايشـه المتنبي في الضـيق والسـعة والحلم والغضـب ، فهو رجل يسـابقه الأعداء الخوف منه والخوف من لقائه فخوفه يطارد عدوه ويهزمه بلا لقاء ويصـنع بأعدائه مالا يصـنع الشجعان ، ويطارد أعداءه حتى في الأماكن التي يتحصنون بها ، وهو إذا ما هزم جيشا طارده في كل معترك ، إن سيف الدولة لا ينفر إلا في القتال فهو رجل الشجاعة والعدل ، ولا هم له إلا قتل الأعداء حيث وجدهم ٠وهنا وصـف سـيف الدولة بصـفات القوة والشجاعة والعفة والعدل وهي الصفات المعنوية المدحية التي نوه بها قدامة ٠

وفي المحور الثاني : ينفذ الشـاعر من وصـف سـيف الدولة بالعدل فيقف وقفته للتعادل معل هـ مفتخرا ، إذ يري أن سـيف الدولة مع عدله مع الناس لا يعدل مع المتنبي ، وينصـف غيره عليه ، ومن هنا ينطلق الشـاعر إلى الفخر بنفسـه في مقابل سيف الدولة وشعرائه بعدد من الصفات فهو الشـاعر الذي ملأ شعره الآفاق ، واستمع إليه الأصم ونظر إليه الأعمى كأبي العلاء ، واختلف حوله النقاد وتناطحوا في الحكم عليه في معارك كلامية ، وحفظ شـعرا المتأدبون إعجابا ، بينما هو هادئ نائم ، وشـاعر في منزلته لا يدانيه متشاعر جاهل تركه المتنبي ، ولم يرد عليه وأمهله وابتسم له ابتسام الأسد الخادع ، وروحه لا تقبل الضيم ، كروح جواد حر صحيح الجري ٠ وهو محارب جمع إلي صبر الأسد وتكشيره الذي لا يظن ابتساما وإنما نذير بالانتقام٠ وجمع بلاغة الكلم ،

وفروسية الفارس المحارب ،الخبير بالخيل وبركوب أهوال الليل ، وبالحروب والقتل والطعن والضــرب ، وشــاعرية الشــاعر الملم بالكتابة والبراعة بغبداع المبدع الفنان ، وصــاحب الأسفار والخلوات في الفيافي الصحراء والوحوش٠

وفي الحور الثالث : ذكر أنه قد قر قراره علي الخروج من عند ســيف الدولة متوجها إلى مصــر غير أنه لم ينفذ ذلك لأنه يصــعب عليه أن يغادر الكرام ، كما يصــعب عليه أن يندم الكرام علي تركه، إنما يضــايقه حســاده الذين يدســون له عند سيف الدولة وهو يصــــدقهم ولا يرد عليهم رغم العهود والمواثيق التي يعرفها ســــيف الدولة حق المعرفة ، فقد ضــاق ببلاد الشــام فلا صــديق له ولا خل يؤازره ، وكثر حســاده فيها ووشــاته ، وعطاؤه يتساوى فيه هم دونه مع المتشاعرين والوشاة ٠إن وجوده هنا وسط مجموعة ممن لا يحسنون الشعر ،وليست لهم فصاحة العرب إقلال من شأنه ؛ ومن هنا فالقصيدة عتاب من محب صاغه في كلام جميل ردا على ما رآه حولي ٠

*ومن الناحية الموسيقية : مالت القصيدة إلى البسيط وقافية المتدارك وهو بحر يتناسب والإنشاد وصيغت منه المدائح النبوية فهو يتناسب مع المدح والفخر والإنشاد وأجزاءه.

* وتسير القصيدة علي ثلاثة معاجم :

١- معجم يصف به سيف الدولة ٠

٢-معجم يصف به نفسه ٠

٣-معجم يصف به عتابه وحساده ٠

- فهناك ألفاظ يمدح بها سيف الدولة في ألفاظ مفردات (حسب سيف الدولة- غرته- أحسن خلق الله كلهم. ناب عنك شديد الخوف ، لك المهابة ، كلما رمت جيشا انثني هربا، ما عليك بهم عار ، يا أعدل الناس ، ترى ظفرا – يا أعدل الناس – أنت الحكم –كل شئ بعدكم عدم –

إن المعارف في أهل النهى) وهي مفردات تحمل الشجاعة والكرم والعدل غير أنه عدل ناقص وظن ناقص ، فالمتنبي لا يضع لسيف الدولة صفات الكمال وينسبها لنفسه هو وبذلك تصبح القصيدة في نظر القارئ خالية لفخر المتنبي ٠

– ويصف نفسه في ألفاظه (وسقم وبرئ وحب ، انا الذي أسمعت كلماتي – أنام ملء جفوني ، ضـــحكي ، نبوب الليث ، جواد ، مهجتي ، الخيل والليل والبيداء تعرفني ، صـــحبت في الفلوات الوحش ، تعجب مني القور والأكم ، ما أبعد العيب والنقصـــان عن شـــرفي ، أنا الثريا ، قنصـــته راحتي) وهي تضـــيف معجما ذو دلالة تصـــف المتنبي بالشجاعة والفروسية والشهامة والحلم والصبر وقوة النصر والبطش وهي جميعا تشارك في جعل القصيدة كلها في حقل المتنبي ٠

– والمعجم الثالث : يمثل الحساد والوشاة والمناوئين للمتنبي في حضرة سيف الدولة في ألفاظ (الشـــحم – شـــحمه ورم – القلم – جاهل– حاســـدنا –عيبا فيعجزكم –ذان الشـيب والهرم – زعنفة – لا عرب ولا عجم) وهي أوصـاف تصـفهم بالخسـة والندالة والعجمة والضـآلة في مقابل شـخصـية المتنبي. وفي العتاب (بقلبه شـبم يا أعدل إلا في معاملتي – أنت الخصـم – تحسب الشـحم –استوت عنده الأنوار والظلم –هذا عتابك)

*ومن ناحية التراكيب اللغوية ٠٠ يلجأ الشـــاعر في حديثه عن علاقته بســـيف الدولة بالالتزام بالتوكيد بادئاء ذلك بأســـلوب الندبة دلالة علي الاســـتغاثة وهذا مما يزيد في إظهار الحب ، ثم لتأكيد هذا بالجمل المؤكدة إما بالنفي في ك (ما لا أكتم حبا) أو بإستخدام (قد) (قد بري جسـدي ،وقد زرته وسيوف الهند مضـمدة ، وقد نظرت إليه والسيوف دم ، وقد ناب عنك شديد الخوف)،

وقد يلجأ إلي أسلوب الشرط في البيت الثالث والتاسع في قوله:

إنْ كانَ يجمعَنَا حبٌّ لِغُرَّتِهِ فلَيْتَ أَنَّا بِقَدْرِ الحُبِّ نَقْتَسِمُ

أَكُلمَّا رُمْتَ جيشًا فانْثَني هربَا تَصرَّفتْ بِكَ في آثاره الهِمَمُ

وهو يساعد المتنبي في خلق نوعٍ من التقسيم الذي يناسب كل طائفة هو أو سيف الدولة أو أعدائه أو يلجأ إلي خطاب سيف الدولة بالنداء: يا أعدل الناس كنوعٍ من العتاب والاستغاثة .

ويلجأ المتنبي في فخر بنفسه إلي المزاوجة بين الجمل الأسمية والفعلية فالأسمية في : (أنا الذي نظر الأعمي إلي أدب ، وجاهل مده في جهله ضحكي ، ومهجة مهجي من هم صاحبي ، والخيل والليل والبيداء تعرفني ، وليت الغمام التي عندي صواعق ، وشر البلاد لا صديق بها ، وشر ما قنصته راحتي ، قنص ،)

وتحمل الجملة الإسمية تثبيت الصفات الفخر عنده ، كما يلجأ إلي الجمل الفعلية منوعا ما بين الماض والمضارع كنوع من التأكيد والتجديد مثل (صحبت في الفلوات الوحش منفردا ، كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم ، لئن تركنا ضميرا عن ميامننا...) .

كما لجأ الشاعر إلي أسلوب الشرط في الرابع عشر :

وما انْتفاعُ أخيِ الدنيا بِنَاظِرِهِ إذا اسْتوتِ عنْدَه الأَنْوارُ والظُّلَمُ

وفي البيت الثامن عشر :

إذا نَظَرْتَ نُيُوبَ اللَّيثِ بارزةً فلا تَظُنَّنَّ أنَّ الليثَ مُبْتَسِمُ

وفي البيتين السادس والعشرون والثالث والثلاثون :

إنْ كان سَرَّكُمُ ما قال حاسدُنا فما لجُرْحٍ إذا أَرْضاكُمُ أَلَمُ

إذا ترَحَّلتُ عن قومٍ وقدْ قدَرُوا أنْ لا تُفَارِقَهُم فالرَّاحِلونُ هُمُ

وهي تتسع للمقارنة و (الفخر عند المتنبي).

*ويلجأ المتنبي إلي الإستعارة أكثر من لجوئة إلي التشبيه في (حبا قد بري جسدي ، ناب عنك شديد الخوف ، تصرفت بك الهمم ، تصافحت فيه بيض الهند واللمم ، الخيل والليل والبيداء تعرفني ، والضرب والطعن تعرفني ، تعجب مني القور والأكم ، ما أبعد العيب عن شرفي) وهي إستعارات تشخيصية وتجسيدية تشخص المعني في صورة شخصية ، وتجسد المعنى في صورة حسبية علي سبيل الإستعارة المكنية .

وإذا جاء بالتشبيه فهو تشبيه مبالغ فيه كما يقول:

إنْ كان سَرَّكُمُ ما قال حاسدُنا فما لجُرْحٍ إذا أَرْضاكُمُ أَلَمُ

ما أبْعَدَ العيبَ والنُّقصانَ عن شَرفي أنا الثُّريا وذَانِ الشَّيْبُ والهَرَمُ

وشَرُّ ما قَنصتْهُ راحَتِي قَنصٌ شُهْبُ البُزَاةِ سواءٌ فيه و الرَّخَمُ

وهو تشبيه يجري مجري الأمثال ، يصور في البيت الأول عدم إحاس سيف الدولة بأثر الوشاة في المتنبي بمن لا يحس بآلام غيره ، وفي الثاني صور بعده عن العيب والنقص كبعد الثريا وهي نجم عن الشيب والهرم ، وفي الثالث صور عطاء الأمير في مشاركة الشعراء والمتشاعرين فيه بالصيد وقد تشاركت فيه البزاة على رفعتها والرخم على ضعتها وهوانها .

ومن الإستعارات التصريحية : (ليت الغمام الذي عندي صواعقه) في تصوير سيف الدولة بالغمام وفي قوله: (بأي لفظ تقول الشعر زعنفة) في تصوير الحاسدين بالزعانف

*والغريب أن هذه القصيدة تتركز حول تجربة حقيقية عاشها المتنبي وكشفت عنها الأيام التالية للقصيدة ، حيث عاش المتنبي في منافسة مع غيره من الشعراء في بلاط سيف الدولة ، حيث وشوا به وكادوا له عند سيف الدولة وقد نجحوا في إيغار قلب الدولة عليه ، فتغيرت معاملة سيف الدولة له وأهمله وكما يقول العكبري في تقديمه للقصيدة :

" وقال يعاتب سيف الدولة: وأنشدها في مختلف من العرب ، وكان سيف الدولة إذا تأخر عنه مدحه شق عليه ، وأحضر من لا خير فيه ، وتقدم إليه بالتعرض له في مجلسه بما لا يحب ، وأكثر عليه مرة بعد مرة ، فقال يعاتبه ، وهي من البسيط ، والقافية من المتدارك:" (٣٠) ٠

فضاق المتنبي ، وأراد أن يرد لهم ؛ فكانت هذه القصيدة التي عبر فيها عن إعلاء نفسه في مواجهتهم ، وأنه سوف يرحل عنهم لأنه أفضل منهم ولأن سيف الدولة لا يقدره حق تقديره وقد رحل المتنبي إلي مصر بعد ذلك ليمدح كافور الإخشيدي من جراء هذه الدسائس التي كالها حاسدوه إلي سيف الدولة فالقصيدة تعبر عن تجربة حياته عاشها المتنبي ومعاناة نفسية واجهها المتنبي لأن المتنبي رجل عنيد عربي الأصل قوي الطباع فقد أراد أن يرد فكانت هذه القصيدة.

بل من الغريب أنه بعد خروج المتنبي من قصر سيف الدولة تعرض لحادث انتقام منهم ، ولكنه تمكن من صدهم كما يقول العكبري : "

" ولما أنشد هذه القصيدة وانصرف ، وكان في المجلس رجل يعاديه ، فكتب إلى أبي العشائر علي لسان سيف الدولة كتابا إلى إنطاكية ، يشرح له فيه ذكر القصيدة ، وأغراه به ، فوجه أبو العشائر عشرة من غلمانه ، فوقفوا قريبا من باب سيف الدولة في الليل ، وأنفذوا إليه رسولا علي لسان سيف الدولة فلما قرب منهم ، ضرب رجل منهم بيده إلي عنان فرسه ، فسل أبو الطيب السيف ، فوثب عليه الرجل ، وتقدمت فرسه به ، فعبر قنطرة كانت بين يديه وأصاب أحدهم فرسه بسهم فانتزعه ، واستقلت الفرس به ، وتباعد بهم ليقطعهم من مدد إن كان لهم ، ورجع إليهم بعد أن فني نشابهم ، فضرب أحدهم بالسيف ، فقطع الوتر وبعض القوس ، وأسرع السيف في ذراعه ، فوقفوا علي صاحبهم المجروح ، وسار وتركهم ، فلما يئسوا منه قال أحدهم : نحن غلمان أبي العشائر ، فحينئذ قال:

ومنتسب عندي إلي من أحبه   وللنبل حولي من يديه حفيف " (٣٠)

هوامش الفصل الرابع :

١- لسان العرب ص ٣٣٦١

٢-معجم مقاييس اللغة ج ٤ ص٤٨٠

٣- العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده ج٢ ص ١٤٣

٤- منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص ٣٥٢

٥- حنا الفاخوري: الفخر والحماسة – القاهرة دار المعارف ١٩٩٢م ص ٥-٦

٦-مصطاحات نقدية ص ١٩٥

٧-نقد الشعر ص ١٨٥

٨- العمدة ج٢ ص١٤٥

٩-الفخر والحماسة ص ١٠-١١

١٠-الفخر والحماسة ص ١٨

١١- الفخر والحماسة ص ٣٨ – ٤١

١٢- نفسه ص ٢٤- ٢٦

١٣- عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي ح٣ الأعصر العباسية – بيروت دار العلم للملايين ١٩٨٥ط هـ ص ٤٥٧ – ٤٥٨

١٤- طه حسين : مع المتنبي . القاهرة . دار المعارف ١٩٣٧م ط هـ ص ١٦

١٥- انظر: طه حسين: مع المتنبي ص ٣٦

: جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ج٣ – القاهرة دار الهلال د.ت ح ٣ص ٣٤٨

١٦-- عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي ح٣ص ٤٥٨

١٧-طه حسين: مع المتنبي ص ٩٩-١٠٠

١٨- عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي ج٢ص ٤٥٩-٤٦٠

١٩- نفسه: ج٢ص ٤٦٠-٤٦٣

٢٠- عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي ج٢ص ٤٦٣ – ٤٦٤

٢١- نفسه ج٢ ص٤٦٤

٢٢- عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي ص٤٥٦

٢٣-جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ح٢ص٢٥٠- عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي ج٢ص٤٦٤

٢٥- طه حسين: مع المتنبي ص٢٥٥-٢٥٧

٢٦- نفسه ص ٢٩٤-٢٩٦

٢٧- القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ت ٣٦٦ هـ : الوساطة بين المتنبي وخصومه – تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، علي محمد البجاوي – القاهرة عيسي البابي الجلي ١٩٦٦م ص٣

٢٨- انظر: عمر فروخ: تاريخ الأدب ج٢ص ٤٨٠- ٤٨١

: كارل بروكمان: تاريخ الأدب العربي نقله إلي العربية: عبد الحليم النجار – القاهرة دار المعارف ١٩٨٣م ط هـ ح٢ص٨٤-٨٥

٢٩- كارل بروكمان: تاريخ الأدب العربي ح٣ص٨٨-٩١

٣٠- ديوان أبي الطيب بشرح أبي البقاء العبقري – المسمي بالتبيان في شرح الديوان – طبعه وصححه ووضع فهارسه مصطفي السقا- إبراهيم الإبياري ، عبد الحفيظ شلبي- القاهرة – مطبعة مصطفي الحلبي ١٩٧١- ص٣٦٢ – ٣٧٤ ، وقد استفدت من شرح المفردات والمعاني عند العكبري مع التصرف والإضافة بهواش الصفحات المذكورة (٣٦٢-٣٧٤) ٠

الفصل الخامس
الوصف

تعني كلمة الوصف لغويا "تحلية الشئ " (١) ، وتعني أيضا النعت "يصفه وصفا وصفة نَعَتُّه فاتَّصف" (٢) ، "(وصفته) وصفا من باب وقد نَعَتُّه بما فيه" (٣) ، والأقرب إلي دلالة الوصـــف أدبيا هو المعني الثاني وهو النعت ، وقد يكون مقرونا بدلالة الأول التحلية أي وصف الشئ من الواقع إلي الشعر أو النثر بتحلية وتجميل.

وبهذا المعني قال نقاد الأدب كما يقول قدامه بن جعفر في تعريف الوصـــف "أقول : الوصف إنما هو ذكر الشئ كما فيه من الأحوال والهيئات . ولما كان أكثر الشعراء إنما يقع علي الأشياء المركبة من ضروب المعاني كان أحسنهم من أتي في شعره بأكثر المعاني التي الموصوف مركب منها ، ثم بإظهرها فيه وأولاها حتي يحيكه بشعره ويمثله للحسن بنعته " (٤) ، وهو في هذا التعريف يرز عي ناحيتين :

الأولى : النقل الحرفي المباشر ،وذكر الشئ بما هو فيه من الأحوال والهيئات ، وهو متأثر في ذلك بالفلسفة اليونانية وبالمنطق الصوري.

الثانية : وصف الأشياء المركبة من ضروب المعاني ، وهو وصف فيثه من التحلية ، وهو الأحسن (٥) .

ونلمح هذا الفهم من تحليله لقول الشماخ بن ضرار يصف أرضا تسير النبالة فيها :

تقعقع في الآباط منها وفاضها خلت غير آثار الأراجيل ترتمي

حيث يقول قدامة :

" فقد أتى في هذا البيت بذك الرجالة ، وبين أفعالها بقوله ترتمي ، ومن الحال في مقدار سيرها بوصفه تقعقع الوفاض ، إذ كان في ذلك دليل على الهرولة أو نحوها من ضروب الســير ، ودل أيضــا على الموضــع الذي حملت فيه هذه الرجالة الوفاض وهي أوعية السهام ، حيث قال في الآباط ، فاستوعب أكثر هيئات النبالة ،وأتى من صفاتها بأولها وأظهرها ٬ليها ، وحكاها حتى كأن سامع قوله يراها " (٦).

فقد ركز قدامة في هذا التعليق على النقل الدقيق بقوله كأن سامعا يراها ، وأضاف التجميل في ذكره : استوعب أكثر هيئاتها ، وأتى من صفاتها بأولها وأظهرها ، مما يدل على أنه وصف انتخابي للعناصر المعبرة والمحلاة والتي تبرز الملامح الأساسية للصورة بتجميل .

ويرى ابن رشيق أن الوصف باب عام يصدق على كل أبوب الشعر من مدح وفخر ورثاء وهجاء وغيرها ، بل ويشتمل على التشبيه فيقول : " الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف ، ولا سبيل إلى حصره واستقصائه ، وهو مناسب للتشبيه ، مشتمل عليه ، وليس به ؛ لأنه كثيرا ما يأتي في أضعافه ، والفرق بين الوصف والتشبيه " (٧)

غير أنه يعرف بتركيز فيقول إنه "إخبار عن حقيقة الشئ " (٧) ، ويسعي بذلك الإخبار إلي تقديم الشئ إلي المستمع كأنه حقيقة ماثلة بل والمبالغة والاجادة والتحلية والتجميل حيث يقول ابن رشيق في الحديث عن الوصف الأحسن :"وأحسن الوصف ما نعت به الشئ حتي يكاد يمثله عايانا للسامع كما قال النابغة الجعدي يصف ذئبا افترس جؤذرا:

فبات يذكيه بغير حديدةٍ أخو قنصٍ يُمسي ويصبح مفطرا

إذا ما رأي منه كراعا تحركت أصاب مكان القلب منه و فرفرا

فأنت تري كيف قام هذا الوصف بنفسه ، ومثل الموصوف في قلب سامعه ... وقال بعض المتأخرين : أبلغ الوصف ما قلب السمع بصرا.....

إلا أن من الشعراء والبلغاء من إذا وصف شيئا بالغ في وصفه وطلب الغاية القصوي التي لا يعدوها شئ : إن مدحا فمدحا ، وإن ذما فذما "(٨) ، وفي ذلك فالوصف:

١- يعني نقل الشئ من الواقع إلي الشعر إلي سمع السامع يترسمه كما هو بلا وزيادة.

٢- إمكانية التجميل والمبالغة فيه .

وامتد الوصففي الشعر العربي إلي العالم المرئي بكل ما فيه :عاليه وأرضه .فقد وصف الشعراء من العلم العلوي السحاب والأمطار والبرق والرعد والغيم والنجوم والسماء ، ومن العالم الأرضي

وصـفوا كذلك الأشـجار والزهور والنبات والماء والجداول والأنهار والجبال والهضـاب والوديان والفيافي ومياهها والحيوانات مفترسـة كالاسـود والنمور والنسـور ، والأليفة كالجمال والنياق وحمر الوحش والبقر والظلمان والوعول والخيل والحمير وغيرها وصفوا الطيور بأنواعها حتي البحار وصفوها وسفنها.

ووصـف الشعراء الخمر والقيان وما يتعلق بها من ذكر الكؤوس والقناني والأباريق ، وو صـفوا ما يتعلق بالمرأة من صـفات الخدود والدود والنهود والوجوه والشـعور والريق والثغور والأرداف والخصـور ووما يتعلق بالجيش والحروب من مفردات الالسـيوف والرماح والدروع والقسي والنبل والمنجنيق والبنود ٠٠٠ مما يشكل معجما متوزعا على عدد واسـع من المجالات الدلالية التي تشـمل الموجودات والأحداث والمجردات والعلاقات ، وهي المجالات التي اقترحها معجم **greek new testament** (٩) ٠

وأشار النقاد العرب إلي تمكن بعض الشعراء من ألوان بعينها من الوصف ، وتخصص الشعراء في أنواع معينة من الوصـف اشتهروا بها ، فقد اشتهر امرؤ القيس وأبو نواس والبحتري وابن الرومي وابن المعتز وكشـاجم بوصـف الإبل ونعوتها ،والقفار ومياهها ، وحمر الوحش ، والبقر والظلمان ، واشـتهر امرؤ القيس وأبو دؤاد والطفيل الغنوي والنابغة الجعدي بوصـف الخيل ، واشتهر الأعشى والأخطل وأبو نواس وابن المعتز في وصـف الخمر والصـيد والطرد (١٠) مما ين إكثاهم ودقتهم في هذه الأنواع التي اشتهروا بها ٠

ومن خلا ما تقدم يمكن إجمال شروط جودة الوصف فيما يأتي :

*الدقة في الوصف ، ونقل الشئ مفدا أومركبا كما لو كنت تراه بالفعل ٠

* قبول المبالغة والتحلية للشئ حتى بلوغ الغاية في ذلك ٠

* إمكانية التخصص في نوعية معينة من الوصف ، مع تشجيع الشاعر إذا تناول وصفا والإحسان فيه لم يكن معتادا عليه أو متفوقا في ٠٠ كما يقول حازم : " ٠٠٠ فواجب أن يضاعف الثناء على الشاعر إذا أحسن في وصف ما ليس معتادا لديه ولا مألوفا في مكانه ولا هو من طريقه ولا مما احتنك فيه ولا مما ألجأته إليه ضرورة ٠٠٠ " (١١) ٠

*اللجوء إلى وصف الصور واللوحات التصويرية أفضل من الاشياء المفردة ٠

* جواز الاختصار أو الإطناب مع دقة وسهولة التراكيب والمفردات المتناولة للوصف ، والبعد عن الألفاظ المستكرهة ، او اللجوء إلى الألفاظ المفخمة ، كما يقول أبو العباس المبرد : " من كلام العرب الاختصار المفهم ، والإطناب المفخم ، وقد يقع الإيماء إلى الشئ ، فيغني عند ذوي الألباب عن كشفه ، كما قيل لمحة دالة ٠وقد يضطر الشاعر المفلق ، والخطيب المصقع ، والكاتب البليغ ، فيقع في كلام أحدهم المعنى المستغلق ، واللفظ المستكره ، فإن انعطفت عليه جنبتا الكلام غطَّتا على عواره ، وسترتا من شينه ٠ وإن شاء قائل أن يقول : بل الكلام القبيح في الكلام الحسن أظهر ، ومجاورته له أشهر ، كان ذلك له ، ولكن يغتفر السيئ للحسن ، والبعيد للقريب " (١٢)٠

ويمكن أن ينقسم الوصف إلى أنواع : الوصف النقلي والوصف الوجداني

الوصف النقلي : وهو وصف مادي يقتصر على تقديم الواقع المادي الخارجي ، أي إخبار عن حقيقة الشئ و تقديم الشئ إلي المستمع كأنه حقيقة ماثلة ، ويعرفه إليا حاوي بقوله : " هو المرحلة الأولى من مراحل الوصف ، حيث يتنازع الشاعر مع الظاهرة ليقبض علىها في حيز الألفظ والصور ٠ إنه نسخة مطابقة لنسخة الكون " (١٣) ، ومن أمثلته قول النابغة للنعمان :

فما الفراتُ –إذا هب الرِّياحُ له ترمي أواذيُّه العبرينِ بالزبدِ
يمده كل واد مترعٍ لجبٍ فيه ركامٌ من الينبوتِ والخضدِ
يظل من خوفه الملاحُ معتصما بالخيزرانةِ بعد الأين والنجد

يومًا – بأجودَ منه سيب نافلةٍ ولا يحولُ عطاءُ اليومِ دونَ غدِ (١٤)

الوصف الوجداني : وهو أرقى من النوع الأول ، فالشاعر لا يصف الظاهرة ، وإنما يصف " ما وراء ها أو ما حولها ، محاولا أن يستطلع منها أو أن يفسرها ٠ وهكذا ، فإن المشهد ينتقل من حواس الشاعر إلى نفسه ، إلى ضميره ، بصورة إنسانية حية ، تتحد به أو تنحل فيه ، وتتخذ منه وجودا أو مفهوما جديدا ٠٠٠وبذلك يصبح الوجود رسالة غامضة ، عالما من الرموز والألغاز ، على الشاعر أن ينحل بقلبها وينفذ إلى روح الحقائق " (١٥) ٠

ومن ذلك قول البحتري :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلما

وقد نبه النيروزَ في غسقِ الدجى أوائل وردٍ كن بالأمس نوما (١٦)

****

وقد تطور فن الوصف من العصر الجاهلي حتي الآن ، ففي العصر الجاهلي وصف العربي البيئة المحيطة به فوصف الطبيعة البحتة: الأطلال والصحراء والليل والسحاب والمطر ،كما وصف الخمر وسقاة الخمر ، وأدوات الحرب من سلاح كالرمح والسيف والقوس والدرع والمعركة ،كما وصف الطبيعة الحية من حيوانات وطيور ونباتات ، كالناقة والفرس والبقرة الوحشية والثور الوحشي والظليم والعقاب والذئب (١٧) ، وغيرهما من حمامات مطوقات وغربان وبوم وغيرها.

ومن الغريب أن موقف الشاعر من الطبيعة كان مجرد النقل الذي يقوم به العالم ،لا الفنان الذي يتأمل تأثير الطبيعة على نفسه ، كما يقول حاوي : "٠٠٠ أن الشعر الجاهلي كان يقوم بوظيفة العالم الذي يقرر ما تراه عيناه ، من دون وظيفة الفنان الذي يعرض لتأثيراته إزاءها " (١٨) ٠

ومن ذلك وصف امرئ القيس لفرسه:

وقد اغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

كميت يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفراء بالمتنزل

علي الذيل جياش كأن اهتزامه إذا جاش فيه حميه إلي الرجل

مسح إذا ما السابحات علي الوني أثرن غبارا بالكديد المركل

يزل الغلام الخف عن صهواته ويلوي بأثواب العنيف المثقل

درير كخذروف الوليد أمره تتابع كفيه بخيط موصل

له أيطلا ظبي و ساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

وفي العصر الإسلامي (صدر الإسلام – الأموي) وصف الشعراء المعارك والفتوحات كموضوعات جديدة ، واستمروا في تقليد الجاهلين في وصف حيوانات الصحراء : الناقة والثور الوحشي والحمار الوحشي ووصف المعركة بين الثور وكلاب الصيد ووصف الذئب ووصف الظعن والإبل وحياة الرعاه وصف الدمن ، واجتهد الشعراء في تقليد القدماء في وصف الطبيعة إرضاء لعلماء اللغة وللخلفاء ومن بيدهم الذوق الأدبي ، فعادت الحياة الجاهلية في الأدب ، وأرى أن الحياة لم تتغير عن الحياة الجاهلية ، فلا زالت الصحراء كما هي ، ومعظم الشعراء كانوا بدوا ٠وتحولت القصيدة الأموية متحفا يضم أوصافالحيوانات الحية ، وهي ألوان حية غص بها الشعر القديم (١٩) ، ولم يتحول الوصف إلى البيئة الجديدة المترفة في الشام والعراق ، كما نزع الوصف في الحقبة ما بين الأخطل وذي الرمة إلى التجريد والصور المعنوية (٢٠) .

وفي العصر العباسي اشتدت صلة الحكام بالفرس وحضارتهم وزاد أتصالهم بالتقاليد الأعجمية ، وتأثرت الطبقات الرفيعة بالثقافة والحضــارة الأعجمية الجديدة ، واتخذ الشعراء من أدوات الحضارة موضوعا لوصفهم ، كما استمر عدد من الشعراء في تقليد الوصف القديم عند شعراء الجاهلية والأمويين . ووصف الفريقات النياق والخيل والأسد والذئب والنحل والكلب والديك والفهد والصقر والسمك والبعوض والطير والجرذان من الطبيعة الحية ووصفوا السحاب والمطر والأنهار والبرك والسفن والأزهار والثمار والرياض والليل والأفلاك والأطلال والقصور والأبنية والمآكل والأطعمة ومرافق البيت (٢١)، والخمر والسقاة والمعارك والحروب ومن ذلك قول الصوبري:

وبركة منظرها يطرب   للماء فيه ألسن تعرب

تحسبها من طول ترجيعها   دائمة تنشد أو تخطب

كأن فوارقها وسطها   إذا ترامت لعب تلعب

من يمنة فيها ومن يسره   قنطرة واقفة تذهب (٢٢)

وتميز الوصف العباسي تميز جديدة تتمثل في اللجوء إلى المعاني المركبة ،ويمزج بينها وبين النزعة الفلسفية والنزعة البديعية ، في قدرة على التجريد وتداول المعاني كصور ، وانكشاف على عالم الضمير ، وما يموج فيه من ظلال وأشعة شعورية ، وفي قيد الزخرف ولبديع ، كما تميز الوصف العباسي بالوجدانية ،وهي التعبير عن الأشياء من خلال الواقع الذاتي والصوفي (٢٣) ٠

وفي العصر الحاضر اتصلت مصر بالغرب ، واستمر عدد من الشعراء في تقليد القدماء فنشأ من ذلك تياران :

الأول : مجدد يتمثل في مدارس المهجر. وغيرها تقدم تصويرا ووصفا لمخترعات العصر الحاضر ، ولا تخرج عن المعاني القديمة إلا في الألفاظ المجنحة والصور اللفظية الجديدة .

والثاني : مقلد للقدماء كحافظ وشوقي وإسماعيل صبري وخليل مطران ،

وقد قلدت هذه المجموعة القدماء في وصف النخل و البحر والشراع والخمر والرقص والربيع والقصور والنيل والبرق والسحاب والشيب والدواة والثعلب والغراب والزهور مع وصف بعض المخترعات كالطائرة وحوادث الزلزال ونكبة الطليان والرياض والثلج والنار والبدر والشتاء (٢٤) ٠

وهكذا تطور الوصف من العصر الجاهلي تطور خاصا بالموضوع وليس في الصياغة والتركيب . وما بين نارين قديم يقلد الجاهلي وجديد يقلد الجديد العباسي أو الحديث.

البحتري :

أبو عبادة الوليد بن عبيد (عبيدين) بن شملال بن جابر بن سلمة . ابن بحتر وينتهي نسبه إلي طيئ ويكني أبا عبادة وأبا الحسن ولد في مدينة منبج شرق حلب سنة (٢٠٦ هـ) ، ونشأ فيها وفي باديتها في قبائل بني طئ.

تتلمذ علي أبي تمام وعرض عليه شعره فاستحسنه ، وساعده أبو تمام علي التكسب بشعره في مدح أهل معرة النعمان ، ونوال عطائهم ، وكان أول مال يناله (٢٥) ، وكان البحتري يتكسب بشعره في الشمال حتي مات أبو تمام ستة **٢٣٢**هـ ؛ فاتجه الي مدح خلفاء بغداد المتوكل علي الله ، ووزيره الفتح بن خلقان ، فلما قتلا عاد الي الشام ، فعاد الي منبج ، ثم عاد إلي العراق للتكسب فمدح من الخلفاء : المنتصر والمستعين والمعتمد ، وتكسب من الطولونيين ثم اعتزل في منبج وتوفي بها بمرض السكتة سنة ٢٨٦هـ (٢٦) ، والبحتري كان قبيح الوجه ، أسمر اللون ، طويل اللحية ،زري الثوب ، ثقيل الظل ، قليل الوفاء ، متقلب الأهواء ، بخيلا جمع ثروة كبيرة . غير أن شعره مطبوع فقد كان سهل الالفاظ ، ويبتعد عن الغريب من الألفاظ سهل التراكيب ، ظاهر المعني والصورة ، وكان يجيد المدح ، ويجيد في ذكر الطيف والخيال (٢٧) .

ولعل أفضل نماذج وصف البحتري قصيدته في وصف إيوان كسري وما بقي فيه من رســـوم لمعركة أنطاكية بين الروم والفرس ، وتتصـــل علي جدران الايوان وهذه هي القصيدة:

سينية البحتري (٢٨)

وصف إيوان كسرى

صُنْتُ نَفْسِي عمَّا يُدَنّس نفسي   وتَرَفَّعتُ عن جَدَا كل جِبْسِ

وتَمَاسَكْتُ حِينَ زَعْزَعَنِي الدَّهْ   ر الْتِمَاسا مِنْهُ لِتَعْسِي و نَكْسي

بُلَغٌ مِنْ صبابَةِ العَيْشِ عِنْدِي   طَفَّفَتْها الأَيَّامُ تَطْفِيفَ بَخْسِ

وبعيدُ ما بين وَارِدِ رَ◌فْهِ   عَلَلٍ شُرْبُهُ ووارد خِمْسِ

وكأَ◌َنَّ الزَّمانَ أَصْبَحَ مَحْمُو   لاً هَوَاهُ مع الأَخَسّ الأَخَسّ

واشْتِرَائي العِرَاقَ خُطَّةُ غَبْنٍ   بعْدَ بَيْعِي الشَّآمَ بَيْعَةَ وَكْسِ

لا تَرُزْنِي مُزَاوِلاً لاخْتِيَارِي   بَعدَ هذِى الْبَلْوَى فَتُنْكِرَ مَسّي

وقَدِيماً عَهِدْتَني ذَا هَنَاتٍ   آبِيَاتٍ عَلَى الدَّنِيَّات شُمْس

ولقد رَابَني نُبُوُّ ابنِ عَمّي   بَعْدَ لينٍ مِنْ جَانِبَيْهِ وأُنْس

وإذا ما جُفِيْتُ كُنتُ جَدِيرًا   أنْ أُرَي غَيْرَ مُصْبحٍ حَيْثُ أُمْسِي

حَضَرتْ رَحْلِيَ الهُمومُ فوجَّهْ   تُ إلي أَبْيَضِ المَدَائِنِ عَنْسِي

أَتسلَّي عن الحُظُوظِ وآسَي   لمِ◌َحلّ مِنْ سَاسَان دَرْسِ

أَذْكَرَتْنِيْهِمُ الخُطُوبُ التَّوَالِي   ولقَدْ تُذْكِرُ الخُطُوبُ و تُ◌ْسِي

وَهُمُ خافِضُونَ في ظَلّ عالٍ   مُشْرِفٍ يَحْسِرُ العُيونَ ويُخْسِي

مُغْلَقٌ بابُهُ علي جَبَلِ القَبْ   قِ إلي دَارَتَيْ خِلَاطَ ومُكْسِ

حِلَلٌ لم تَكُنْ كأَطْلَالِ سُعْدَي   في قِفَارٍ من البَسَابِسِ مُلْسِ

وَمَساعٍ لَوْلَا المُحَابَاةُ مِنّي   لم تُطِقْهَا مَسْعَاةُ عَنْسٍ وعَبْسِ

نقلَ الدَّهْرُ عَهْدَهُنَّ عنْ الجِدَّ ةَ حتى رَجَعْنَ أَنْضَاءَ لُبْسِ

فكأنَّ الجِرْمَازَ مِنْ عَدَمِ الأُنْ سِ وإِخْلَالِهِ بَنِيَّةُ رَمْسِ

لو تَرَاهُ عَلِمْتَ أنَّ اللَّيَـالِي جَعَلَتْ فيه مأْتَمًا بعد عُرْسِ

وَهْوَ يُنْبِيكَ عن عَجَائِبِ قَوْمٍ لا يُشَابُ البَيَانُ فِيهِمْ بِلَبْسِ

وَإِذا ما رأيْتَ صُورَ أَنْطَا كِيَةَ ارْتَعْتَ بيْنَ رُومٍ وفُرْسِ

والمَنَايَا مَوَاثِلٌ ، وَأنُوشِرْ وانْ يُزْجِي الصُّفوفَ تَحْتَ الدِّرَفْسِ

في اخْضِرَارٍ من اللِّبَاسِ علي أَصْ فَرَ يَخْتَالُ في صَبِيغَةِ وَرْسِ

وعِرَاكُ الرِّجال بَيْنَ يَدَيْـهِ في خُفُوت مِنْهُمْ وإِغْمَاض جَرْسِ

من مُشِيحٍ يَهْوِي بِعَامِلِ رُمْحٍ ومُلِيحٍ من السِّنَانِ بِتُرْسِ

تَصِفُ العَيْنُ أَنَّهُمْ جِدُّ أَحْيَا ءٍ لَهُمْ بَيْنَهُمْ إشَارةُ خُرْسِ

يَغْتَلِي فِيْهِمْ ارْتِيَابِيَ حَتَّى تَتَقرَّاهُمْ يَدَايَ بِلَمْسِ

*****

قَدْ سَقَانِي وَلَمْ يُصَرِّدْ أَبُو الغَوْ ثِ عَلى العَسْكَرَيْنِ شَرْبَةَ خُلْسِ

مِنْ مُدَام تَظُنُّهَا وَهْيَ نَجْمٌ ضَوَّأَ اللَّيْلَ أو مُجَاجَةُ شَمْسِ

وتَرَاهَا إذا أَجَدَّتْ سُرُورًا وارْتِيَاحًا للشَّارِبِ المُتَحَسِّي

أُفْرِغَتْ في الزُّجَاجِ منْ كُلِّ قَلْبٍ فَهْيَ مَحْبُوبَةٌ إلى كُلِّ نَفْسِ

وَتَوَهَّمْتُ أنَّ كِسْرَى أَبَرْوِيـ زَ مُعَاطِيَّ والبَلَهْبَذَ أُنْسِي

حُلُمٌ مُطْبِقٌ عَلَى الشَّكِّ عَيْنِي أَمْ أَمَانٍ غيَّرْنَ ظَنِّي وحَدْسِي؟

وكأَنَّ الإيوانُ منْ عَجَبِ الصَّنْـ عَةِ جَوْبٌ في جَنْبِ أَرْعَنَ جِلْسِ

يُتَظَنَّي منَ الكَآبَةِ إذْ يَبْـ ـدُو لِعَيْنَيْ مُصَبِّحٍ أو مُمَسِّي

مُزْعَجًا بالْفِرَاقِ عَنْ أُنْسِ إلْفٍ عَزَّ أَو مُرْهَقًا بِتطْليقِ عِرْسِ

عَكَسَتْ حَظَّهُ اللَّيَالي وبَاتَ ال مُشْتَرِي فيهِ وَهْوَ كَوْكَبُ نَحْسِ

فهو يُبْدِي تَجَلُّدًا وعَلَيْهِ ككل من كلاكل الدهروس

لَمْ يَعِبْهُ أنْ بُزَّ مِنْ بُسُطِ الديـ باجِ واسْتُلَّ من سُتُورِ الدِّمَقْسِ

مُشْمضخِرٌّ تَعْلُو لهُ شُرُفَاتٌ رُفِعَتْ فِي رُءُوسِ رَضْوَي وقُدْسِ

لَابِساتٌ مِنَ البَيَاضِ فَمَا تُبْـ ـصِرُ مِنْهَا إلاَّ غَلائلَ بُرْسِ

لَيسَ يدري: اصنع انس لجن سَكَنُوهُ أَمْ صُنْعُ جِنٍّ لِإنْسِ

غيرَ أَنِّي أَرَاهُ يَشْهَدُ أَنْ لَمْ يَكُ بَانِيهِ فِي الملُوكِ بِنِكْسِ

فَكَأَنِي أَرَي المَرَاتِبَ والقَوْ مَ إذَا مَا بَلَغْتُ آخِرَ حِسِّي

وَكَأَنَّ الوفُودَ ضَاحِينَ حَسْرَي منْ وُقُوفٍ خَلْفَ الزِّحَام وَخُنْسِ

وكَأَنَّ الْقِيَانَ وَسْطَ المَقَاصِيـ ـرِ يُرَجِّعْنَ بَيْنَ حُوٍّ ولُعْسِ

وكَأَنَّ اللِّقَاءَ أَوَّلُ مِنْ أَمْـ ـسِ وَوَشْكَ الفِرَاقِ أَوَّلُ أَمْسِ

وكَأَنَّ الَّذي يُرِيدُ اتِّبَاعًا طَامِعٌ فِي لُحُوقِهِمْ صُبْحَ خَمْسِ

عُمِّرَتْ للسُّرُورِ دَهْرًا فَصَارَتْ للتَّعَزِّي رِبَاعُهُمْ والتَّأَسِّي

فَلَهَا أَنْ أُعِينَها بِدُمُوعٍ مُوقَفَاتٍ عَلَى الصَّبَابَةِ حُبْسِ

ذَاكَ عِنْدِي وَلَيْسَتْ الدَّارُ دارِي باقْتِرَابٍ مِنْهَا ولا الجِنْسُ جِنْسِي

غَيْرَ نُعْمَي لأَهْلِهَا عِنْدَ أَهْلِي غَرَسُوا من زَكَائِها خَيْرَ غَرْسِ

أَيَّدُوا مُلْكَنا وَشدُّوا قُوَاهُ بِكُمَاةٍ تَحْتَ السَّنَوَّرِ حُمْسِ

وَأَعَانُوا عَلَي كَتَائبِ أرْيَا طَ بِطَعْنٍ عَلَي النُّحُورِ ودَعْسِ

وأَرَانِي مِنْ بَعْدُ أَكْلَفُ بالأَشْ رَافِ طُرًّا من كُلِّ سِنْخٍ وأُسِّ

معاني المفردات :

١- يدنس : يلطخ ، ويوســـخ ، ويعيب ٠ ترفع : تعالى ٠ الجدا : العطاء ٠جبس : الجبان اللئيم والفاسق والثقيل الروح ٠

٢-تماسكت ٠ زعزعني : حركني بعنف حين نالتني خطوبه ٠ التماسا : طلبا ٠الدهر : الزمان ٠تعسي : هلاكي ٠ نكسي : سقوطي وهزيمتي ٠

٣- بلغ : جمع بلغة وهي ما يكفي من العيش ولا يفضل ٠ الصبابة : البقية من الماء ٠ طففتها : نقصتها ٠البخس : الغبن والظلم ٠

٤- وارد رفه : آت طيب العيش ولينه ٠ علل : ورود الماء ثانية بعد الورود الأول اذي يسمى النهل ٠ وارد خمس : من أظماء الإبل وهي ترعى ثلاثة أيام وترد في اليوم الرابع والمعنى (١-٤) : لقد أبعدت نفسي عما عما يعيبها ، وترفعت عن مدح وعطاء كل من كان جبانا خسيسا لئيما ، وتماسكت عندما تعرضت للخطوب والمتاعب التي نالتني لهلاكي وهزيمتي ، فلقد أنهى الزمان على ما وصلت إليه من غنى ، وتكفلت مآسيه بانهاء ما بقي في يدي ما مال ويسر كنت فيه ظلما وعدوانا ، ووصلت إلى حال بائسة ومعيشة ضيقة ، وحياتي في ورودها بين الرغد والبؤس تماما كالفارق في حياة البادية بين رعي الإبل على الماء والعشب على مر الأيام في أيام الرغد وكثرة الماء ، وبين ورودها على المرعى ثلاثة أيام ثم ورودها الماء في اليوم الرابع لقلة الماء ٠

٥- محمولا هواه : يميل بحبه ، ويقصد نصرة ٠ الأخس : الخسيس وهو القليل والتافه ٠

٦- اشترائي : يقصد التوجه والإقامة ٠ خطة : هدفا ٠ غبن : الخداع في البيع والشراء ٠ بيعي الشام : رحيلي عنها ٠ وكس : نقصان وخسارة

٧- ترزني : قرازه جربه واختبره ٠ البلوى : المصيبة ٠ تنكر مسي : إصابتي

٨-هنات : خصال ٠ آبيات : عنيدة لا ترضى بالخسيس الدون ٠شمس : عنيدة لا تذل ٠ الدنيات : مفردها دنية ، الحقيرة

٩- رابني : جعلني أشك ٠ نبو : نفور وجفوة ٠وابن عمي : يقصد الراهب عبدون بن مخلد ، فهو من أصل يمني مثله يرجع نسبه إلى الحارث بن كعب ، فهو مذجحي ، والشاعر طائي (٢٩) وقد يقصد الخليفة المنتصر ، فالبحتري قحطاني والخليفة عدناني ، وقد قال هذهالقصيدة بعد مقتل المتوكل ، وإعراض المنتصر عنه لهجائه أباه في رثاء أبيه (٣٠) ٠

١٠- جفيت : تركت بلا وصل • حريا : خليقا •

والمعنى : (٥-١٠) ولقد رأيت الزمان يميل نحو الخسيس ويعطيه ، ولا يعطي الشريف ، وينصف الأنذال ويجور على الأخيار •ووجدت إقامتي بالعراق ، وتركي الإقامة بالشام ورحلتي عنها ، وهي موطني الأول والأصلي ••عمل ظالم لنفسي ، ونقصان وخسارة كبيرة في المال والرزق والغربة • فيا زمني يكفيك ما أنا فيه من هم وكدر ، فلا تجربني وتخبرني بالمزيد ، فلقد خبرتني فوجدتني أتحلى بصفات عنيدة لا ترضى بالذل والهوان والخسيس من العيش ، فتأنف منه وتبعد عنه • ومما يزيد آلامي إهمال القريب لي ، ومن بيده إنقاذي ، فهذ الخليفة المنتصر قد أهملني ، وحرمني عطاءه بعدما كنت مقربا من والده ومنه ، وأنا لا أحب الجفاء والبعد ، ومن هنا أغادر المكان وأمسي في آخر

١١- الرحل : ما يوضع على الدابة من فرش •حضرت رحلي الأحزان : حضرتني الأحزان والهموم •عنسي : ناقتي •

١٢- أتسلى : أجد موضعا للتسلية • آسى : أحزن • درس : زائل • آل ساسان : أكاسرة الفرس الذين أزال الفتح الإسلامي دولتهم •

١٣- الخطوب : جمع حطب وهو المصائب • التوالي : المتتالية •

١٤- هم : آل ساسان • خافضون : في حياة رغدة • في ظل عال مشرف: في قصر مرتفع (القصر الأبيض) • يحسر العيون : يرد العيون كليلة ضعيفة عن أن تصل إلى نهايته •يخسي : يؤلم •

١٥- القبق : جبل متصل بباب الأبواب في أقصي شمال بلاد أنوشروان وهو آخر حدود أرمينيا ويسمى جبل القبج والقبجان . خلاط : هي هضبة أرمينية الوسطي وتقع علي الشاطئ الغربي لبحيرة وان ويطل عليها الجبل العظيم كوه سيبان . مكس: موضع بأرمينيا. دارتي : مثنى دارة وهي الأرض الواسعة بين الجبال •

١٦- حلل : جمع حلة وهي المنزل أي المدينة ٠ البسـابس : القفار ٠ ملس :التي لا نبات فيها ٠
١٧- مسـاع : المكرمات ٠لم تطقها : لا تسـمو إليها ٠عنس : قبيلة يمنية ، وعبس : قبيلة عنترة العبسي من مضر ٠ لولا المحاباة مني : لولا ميلي للعرب٠
١٨- الجدة : الحداثة ٠ أنضـاء لبس : جمع النضـو وهو المهزول من الحيزان ومن الثياب البالي ٠ لبس ك استعمال ، أي أبلاها بعد الجدة ٠
١٩- الجرماز: اسم بناء كبير أبيض اللون كان عند أبيض المدائن ثم عفا أثره وكان عظيما بجوار القصـر ، وهو الإيوان محرفة عن كلمة كرمازي الفرسـية . البنية: الشئ المبني. الرمس: القبر مستويا مع وجه الارض.إخلال : الترك والغياب
٢٠- ماتما : مكان الاحتفال بالميت ٠ عرس : فرح

والمعنى : (١١-٢٠) ولما زادت همومي ، وجهت ناقتي تجاه المدائن البيضـاء ، وهناك أنفث عن أحزاني ،وأتسـلى عن همومي برؤية قصـور الأكاسـرة من آل ساسان الذين زالت دولتهم على يد الإسلام ٠لقد ذكرتني بهم المصائب العديدة التي مرت بي ، وهذا من طبيعة المصائب التي تذكر بشئ وتنسي شيئا آخر ٠ لقد كان الأكاسـرة من آل سـاسـان يعيشـون في رغد العيش في هذا القصـر المرتفع الأبيض المتسـع ، وهو قصـر على مكان عال تحيط به الأسـوار ، تنحسـر العيون وتكل إذا ما أرادت أن تبلغ نهايته ، فقد بنى ملك الفرس حول قصـره سـورا يمتد من دربند حتى الغرب بالصـخر والرصـاص ، وجعل عرضـه ثلثمائة ذراع وعلا ، وألحقه بالجبال ثم قاده في البحر ،وجعل عليه بابا ووكل به الحراس ٠ هذا السـور بابه مغلق يطل على جبل القوقاز ، كما يطل على خلاط وهي قصـبة أرمينية الصغرى ، كما يطل على مكس وهي موضع بأرمينية أيضا ٠ لقد أصبح القصر مدنا خربة وآثار منازل أصبحت كالأطلال ،

غير أنها تفوق في روعتها أطلال جزيرة العرب من مثل أطلال سعدى في الصحراء المقفرة والتي لا نبت فيها . آثار كريمة ، ولولا تحيزي للعرب ؛ فأنا عربي ، لقلت إنها أفضل من آثار عبس القبيلة العدنانية من عرب الشمال ، أو عنس القبيلة القحطانية من عرب الجنوب . لقد حدثتنا آثار هؤلاء الفرس التي أبلاها الزمان ، فأصبحت كالثياب البالية ... بأخباهم . وهذا القصر العظيم البناء (الجرماز) كان مملوءا بالأنس والحياة والحركة ، غير أنه وبعد أن تركه أهله ومحي أثره أصبح كالقبر . وما تراه العيون وهو في حالته هذه ، ترى آثار التغير الزمني الذي حولته من عرس إلى ماتم .

٢١- يبنيك : يخبرك . البيان : المنطق السليم . اللبس :الاختلاط وسوء الوضوح والغموض . شاب : اختلط .

٢٢- صورة أنطاكية : صورة المعركة في مدينة أنطاكية ، وهي بلد بالشام وقعت فيها المعركة بين الفرس والروم عام ٥٤٠م ، والصورة كانت صورة كسرى وهو يهاجم ملك الروم في أنطاكية ويحاصر أهلها ، وقد صورت هذه المعركة على جدران القصر . ارتعت : فزعت .

٢٣- المنايا : الموت . مواثل جمع ماثلة ، أي قائمة للعيان وقت الحرب . أنوشروان : كيرى أنوشروان (٥٣٥-٥٧٨م) من أشهر ملوك الفرس . يزجي : يوجه . الدرفس : علم الفرس ، وكان من جلد .

٢٤- صبيغة : صبغة . ورس : نبات ذو صبغة حمراء ، وهو يصبغ به .
أصفر ورس : أصفر شديد الصفرة .

٢٥- خفوت : سكون صوت . الجرس : الصوت . إغماض : خفوت .

٢٦- مشيح : الحذر المجد . مليح : الخائف الحذر . السنان : نصل الرمح . الترس : صفحة من الفولاذ مستيرة تحمل للوقاية من السيف ونحوه

٢٧- تصف العين : يخيل إليّ ، خرس : بدون صوت ،

٢٨- يغتلي : يجاوز الحد ، ارتيابي : شـــكي ، تتقراهم : تتبعهم ، بلمس : أي حتى ألمسهم بيدي في الصورة حتى أتبين أنهم أحياء أو أموات ،

والمعنى : (٢١-٢٨)

عندما يتأمل الناظر والمتفرج على هذا القصـــر ، ســـيعرف أخبار الفرس وأمور حياتهم العجيبة والواضـــحة التي لا غموض يحيط بها ، ومن ذلك صـــورة معركة أنطاكية بين الفرس والروم عام ٥٤٠م ، وقد رسمت بدقة على جدران القصـــر ، يفزع المتأمل حين يراها ، ففيها صـورة الموت ماثلة للعيان ، إذ فيها يتقدم كسـرى أنو شـــروان جنوده وصـــفوفه رافعا علم بلاده وهو يهاجم مدينة أنطاكية ويقاتل ملك االروم وجنوده وأهل المدينة ، وهو يرتدي ملابسـه الخضـراء الزاهية ، على حصانه الأصفر بصفرة وصبغة نبت ورس ، وإلى جانبه الجنود يتعاركون ويتقاتلون بعنف وشدة ، وبلا صوت وكأنهم خرس ، فهذا جندي يهوي بصدر رمحه في قوة وحذر شـديد ، وهذا يتلقى نصـل رمح عدوه بترسـه الفولاذي في خوف وحذر شـــديد ، إن عيني تتخيل من دقة تصـــويرهم أنهم أحياء يتحركون ويتهامســـون بغشارة كالخرساء ، ولا أتأكد من كونهم رسوما ، إلا عندما تلمسهم يدي ، ويزول شكي فيهم ،

٢٩- يصرد : يقلل ، أبو الغوث : يحي بن البحتري ، شربة خلس : شربة خمر سريعة ، العسكرين : في رؤية صورة معركة العسكر ،

٣٠- مدام : خمر ، مجاجة : الريق أو عصارة كل شئ ،

٣١- أجدت : أحدثت ، ارتياحا : لذة ، المتحسـي : الشـارب الذي يشـرب مرة بعد مرة ، أفرغت : صبت الخمر ،

٣٣- معاطي : من تعاطى أي تناول ، والقصد هنا يتناول الشراب ٠البهلبذ : مغني وعواد كسرى ٠

٣٤- مطبق : مؤكد ٠ ظني : شكي

والمعنى : (٢٩-٣٤)

وبينما نحن نتفرج على الإيوان ، ناولني ابني يحي شربة ممتلئة بسرعة من خمر معتقة شديدة الصفاء شديدة البياض كضوء النجم أو شعاع الشمس ، لها فعلها في شاربها الذي يديم شربها ، إذ تحدث فيه سرورا ، ولذة وراحة في النفس ٠ لقد فعلت فيّ هذه الخمر فعلها فتوهمت أن كسرى أبرويز ، وهو يتناول شرابه ويستمع إلى مغنيه وعواده البهلبذ ، وكان كسرى يحب ثلاثة أشياء هي : فرسه شبديز ، وجاريته شيرين ، ومغنيه وعواده بلهبذ ٠ وقد بدت هذه الصورة فلا أدري أهي خيال خالص رأته عيني أم هي صورة مرسومة على الجدران أيضا ٠

٣٥- الجوب : الخرق أو نحت ٠ الأرعن : الجبل ذو الرعن وهو أنف يتقدم الجبل ٠جلس : الجبل العالي ٠

٣٦- يتظن : يظن ٠ الكآبة : الحزن ٠

٣٧- مزعجا : حزينا ٠ إلف : حبيب ٠ مرهفا : رقيق الإحساس ٠

٣٨- المشترى : كوكب سعد ٠وهو كوكب نحسي : تحول هذل الكوكب إلى كوكب نحس بما أصاب القصر من خراب ٠

٣٩- التجلد: إظهار الصبر والجلد٠ كلكل : صدر أو ما بين الترقوتين ٠ مرسى : موضوع ٠

٤٠- بز : سلب ٠ الديباج : ثوب سداه ولحمته حرير ٠ استل لك أنتزع وأخرج ٠ الدمقس : الحرير الأبيض٠

٤١- مشمخر : عالي ٠شرفات القصر : ما طل منه وأشرف ٠ رضوى : جبل ٠ قدس : جبل عظيم بنجد ٠

٤٢- غلائل : جمع غلالة وهي شعار يلبس تحت الثوب ٠ البُرِس : القطن ٠

٤٣- يدرى : يعرف

٤٤- نكس : الضعيف الدني ٠

٤٥- المراتب : مفدها مرتبة وهي كل مقام شديد ٠ حسي : ما أحس به ٠

٤٦- ضاحين بارزين للشمس ٠ حسرى : جمع حسير وهو العيي ٠ خنس : متأخر ٠

٤٧- القيان : مفردها قينة وهي المغنية ٠ المقاصر : جمع مقصورة وهي الدار والواسعة المحصنة ، والحجرة من حجر الدار ٠ يرجعن : يكررن الغناء ٠ حو : صفة للشفاة ، وهي سواد إلى الخضرة أو حمرة إلى السواد٠ لعس : صفة للشفاة وهي سواد مستحسن ٠

٤٩- اتباعا : متابعتهم ٠ لحوقهم : اللحاق بهم ٠ خمس : خمس ليال ٠

والمعنى : (٣٥ -٤٩)

إن إيوان كسرى في جماله ودقة صنعته ، يبدو على البعد بالنسبة لقصر كسرى الكبير بما يشمله من مقاصير وغرف ٠٠خرق في جانب جبل عال أرعن وقد بدا لعيني حزينا على فراق أهله صباح مساء على مرور السنين الماضية ٠حزينا على فراق سكانه وأهله ، أو رق إحساسه فاشتد أمله لتركه الأفراح ٠ وأظهرت الليالي نصيبه وحاله المحزن ، وكأنما تحول حظ هذا القصر من سعد إلى نحس ، حتى كان المشترى كوكب السعد تحول بفعل هذا القصر إلى كوكب نحس ٠وهو يظهر مقاومة وصبرا لما مر به من ليال ،

وتغير للأزمان التي تركت آثارها على صـــدره ٠لقد تحول المكان من لبس الحرير والدمقس إلى خراب ، وانتزعت منه ســـتوره الحريرية من دمقس وديباج ، وبقي عاليا خربا كما أراه تشـــرف غرفه على الجبال المترامية حوله مثل جبل رضـــوى وجبل قدس ٠شرفات قصره تعلوها الرمال اليضاء وتغلفها بغلالة بيضاء كالقطن الأبيض ، من دقة صنعها لا يدري المتأمل أصنعها إنس لجن أم صنعها جن لإنس ٠وتشـهد أن صـانعها وبانيها مبدع قوي غير ضـعيف واني ٠لقد خيل لي أني أرى كســـرى في مجلســـه والقوم يقفون أمامه في طبقاتهم ، ووفود متزاحمون من الأمم الأخرى متعبة من الوقوف والزحام ، يتأخر بعضـــهم وراء بعض ٠والقيان تعيد وتكرر الغناء في ساحة القصـصر الواسعة ، وقد با جمال شفاههن وتعد بين حو ولعس ٠خيـل إلى أن مـا أراه كـان أمس أو أول أمس٠ وكـأن هنـاك من يريـد متابعتهم واللحاق بهم وقد قطع خمس ليال ٠

٥٠- التعزي : العزاء ٠ التأسي : الحزن ٠رباعهم : منازلهم وديارهم ٠

٥١- الصبابة : الشوق ٠ حبي : موقوفة

٥٢- الجنس : الفرس

٥٣- زكائها : نمائها

٥٤- كماه : جمع كميّ وهو الشـــجاع أو لابس الكماة وهي الدرع والبيضـــة ٠ السنور: كل سلاح من حديد ٠ الحمس : الشجعان ٠

٥٥- أريط : قائد حبشـــي فتح اليمن قديما ، وأخرج الأحباش بمعونة الفرس ٠ الدعس : الدوس والطعن ٠

٥٦- أكلف : أولع ٠ السنخ : الأصل والمنت ٠ أس : أصل البناء ٠

المعنى : (٥٠-٥٦)

لقد عاشت هذه القصور أزمانا طويلة في الماضي عامرة بأهلها ، غير أنها الآن أصبحت خاوية من أهلها خراب ، يزورها الناس للعزاء والعبرة والموعظة والتأسي عليها ٠ وأنا أقف أمامها أحبس دموعي حسرة عليها والشوق إليها وما آلت إليه ٠ إن هذه الديار ليست دياري وأهلها ليسوا أهلي وجنسهم ليس من جنسي ، فأنا عربي وهم فرس ، غير أن لأهلها فضل على أهلي ، ما يزال مستمرا على الأيام ؛ فلقد أيدوا الدولة العباسية ، وقوها بجنودهم الشجعان المدججين بالسلاح والمتسلحين بالدروع في عصنا الحاضر ، وقديما قام أرياط القائد الفارسي بمساعدة سيف بن ذي يزن على طرد الأحباش من اليمن في عهد أنوشروان ، وأمعن في الأحباش طعنا بالسيف ٠ إنني مغرم بذكر الأشراف من كل جنس عربا أو غيرهم ، أذكر فضلهم وآثارهم عظة وعبرة

التعليق على القصيدة :

تدور قصيدة البحتري علي فكرتين متمازجتين هما:

الأولى : شكوي من الدهر والأهل (١-١٠)٠

والثانية : وصف البحتري لإيوان كسري وتأسيسه بهذا الوصف (١١-٥٦)

وتتناول الأبيات الأولي الدافع الذي دفع بالبحتري إلي الترحال إلى مدائن كسرى ، فقد مر البحتري بمرحلة من ضيق العيش بعد رغد العيش ، فقد فيها ثروته وممدوحيه من الموسرين الأغنياء وأولهم الخليفة المنتصر ، فهذ الخليفة المنتصر قد أهمله ، وحرمه عطاءه بعدما أن كان مقربا من والده ومنه ، ووجد أن إقامته بالعراق ، وتركه الإقامة بالشام ورحلته عنها ، وهي موطنه الأول والأصلي ٠٠عمل ظالم لنفسه ، ونقصان وخسارة كبيرة في المال والرزق والغربة ، ووجد نفسه في زمن انقلبت فيه المقاييس ؛ فارتفع الوضيع وانخفض الشريف ،

وهي ظروف نفسية واجتماعية وفنية جعلته يشكو هذا الزمن ، وأن ينفذ إلى رحلته للتأسي والعبرة بهذه الآثار حتى " يجد العزاء بجانب الإيوان ، حيث يضمن تجاوبه معه ، نظرا لما أحسه من تشابه بين واقعه النفسي وواقع الإيوان ، وعندئذ يسقط ما يدور في نفسه على وجده من آثار بقيت من الإيوان " (٣١) ، .

وتتناول الأبيات الثانية الباقية تأمله لإيوان كسرى ، ووصفه ، حتى " يخلق لذاته الشاعرة فرصة للتصوير الفني (٣١) ، فوصفه بأنه إيوان أو قصر مبني علي جبل القوقاز ، وعلى مكان عال، و أسواره تحيط به من كل الجوانب ، وتمتد من دربند حتى الغرب ، مبني بالصخر والرصاص ، وعرضه ثلثمائة ذراع وعلا ، وألحقه كسرى بالجبال ثم قاده في البحر ،وجعل عليه بابا ووكل به الحراس . هذا السور بابه مغلق يطل على جبل القوقاز ، كما يطل على خلاط وهي قصبة أرمينية الصغرى ، كما يطل على مكس وهي موضع بأرمينية أيضا .

وهو أطلال باقية ليست كأطلال سعدي في قفار الصحراء العربية ؛ إنه بناء ضخم كبير خال من الناس قريب من القبر إذا دخله إنسان رأي فيه العجائب التي لا يستطيع البيان أن يحويها وصف .

وقد رأي علي حوائط القصر معركة أنطاكية بين الفرس والروم عام ٥٤٠م ، مرسومة بالجص البارز بدقة على جدران القصر ، إذ فيها يتقدم كسرى أنو شروان جنوده وصفوفه رافعا علم بلاده وهو يهاجم مدينة أنطاكية ويقاتل ملك الروم وجنوده وأهل المدينة . وهو يرتدي ملابسه الخضراء الزاهية ، وعلى حصانه الأصفر بصفرة وصبغة نبت ورس ، وإلى جانبه الجنود يتعاركون ويتقاتلون بعنف وشدة ، وبلا صوت وكأنهم خرس . فهذا جندي يهوي بصدر رمحه في قوة وحذر شديد ، وهذا يتلقى نصل رمح عدوه بترسه الفولاذي في خوف وحذر شديد ، وكأنهم أحياء يتحركون.

بل يتخيل وقد طافت الخمر برأسه كسرى أبرويز ، وهو يتناول شرابه ويستمع إلى مغنيه وعواده البهلبذ ، وكان كسرى يحب ثلاثة أشياء هي : فرسه شبديز ، وجاريته شيرين ، ومغنيه وعواده بلهبذ ٠

ثم أمام هذه الصورة الحية للقصر ، يلجأ إلى وصف حال القصر في تماه بينه وبين القصر ، وهوبحالته الحاضرة حيث يبدو القصر ٠٠خرق في جانب جبل عال أرعن ، حزينا على فراق أهله صباح مساء على مرور السنين الماضية٠ وأظهرت الليالي نصيبه وحاله الحزن ، وكأنما تحول حظ هذا القصر من سعد إلى نحس ، وأصبح كالقبر ٠

لقد رأي البحتري في عجائب الصنعة لونا من التعزي والتأسي التي بقيت علي طول الزمان تشير الي جنس غير الجنس العربي والي شجاعة غير شجاعة العرب وتبعث علي السرور وتخرجه من حالته النفسية التي عاشها.

ومن اللافت للنظر أن هذا الوصف ابتعد به صاحبه عن النقل التجريدي إلى تغشية الوصف بالشعور الإنساني ليتحول الجرماز إلى رمز أو معنى ، وجعل الوصف يترأى في الخيال ، وهذا ما يمثل الجدة في وصفه (٣٢) ٠

وتضافر العناصر الأخري من موسيقى ومعجم شعري وتراكيب لغوية وصور حيالية ورؤى واقعية ٠٠في إبراز حالتين نفسيتين للشاعر تجاه الإيوان :

١- حالة ما قبل الإيوان ، وهي الحزن والألم ٠

٣- حالة ما بعد رؤية الإيوان ووصفه وهي حالة التأسي والسرور ٠

* فمن ناحية الموسيقي تنتمي هذه القصيدة إلي بحر الخفيف وعروضه وضربه صحيحان وأجزاؤه ، وهو بحر يميل إلي الفخامة ، وواضح النغم ، ويتسع للسرد التاريخي والحوار والجدل ويمتلئ بالقصص الملحمي ، وقيل عنه إنه أخف البحور علي الطبع وأطلاها للسمع ، ويتناسب تماما و الرصف (٣٣). ٠

*ومن ناحية المعجم الشعري يدور حول ناحيتين :

الأولي تمثل صراعا نفسيا ٠

والثانية تمثل إعجابا منظريا ٠

تبدو الأولي في ألفاظ : صنت نفسي ، ترفعت ، تماسكت ، تعسي ، نكسي ، بخس ، رابني ، نبو ، جوفيت ، حضـــرت رحل الهموم ، أتســـلي ، أذكرتنيهم الخطوب ، وهي تشير إلي حاله نفسية كانت الباعث له علي الخروج والرحلة إلي الايوان ٠

والثانية تمثل وصـفه وإعجابه بإيوان كسـري في ألفاظ : مغلق ، القبق ، أطلال ، الجرماز ، عجائب ، قوم ، لا يشـاب البيان فيهم بلبس ، يهوي ، مليح من السـنان ، أنهم جد أحياء ، تتقراهم يدي بلمس ذاك عندي ، لا الجنس جنس.

وهي تمثل الإعجاب بهذا الإيوان والتأسي به .

ومن ناحية الصورة الشعرية نجد أنفسنا أمام صورتين :

الأولى : صـور خيالية تتمثل في الاسـتعارة والتشـبيه ، فالاسـتعارة في صـنت نفسـي ، زعزعني الدهر ، حضـرت رحلي الهموم ، اذكرتنيهم الخطوب وهي تشـخيص وتجسـيد للمعنويات علي سبيل الاستعارة المكنية ٠

والتشبيه في :

فكأنَّ الجِرْمَازَ مِنْ عَدَمِ الأُنْ	سِ وإِخْلَالِهِ بَنِيَّةُ رَمْسِ
وكأَنَّ الإيوانُ منْ عَجَبِ الصَّنْ	عَةِ جَوْبٌ في جَنْبِ أَرْعَنَ جِلْسِ
فَكَأَني أَرَي المَرَاتِبَ والقَوْ	مَ إذَا مَا بَلَغْتُ آخِرَ حِسِّي
وَكَأَنَّ الوفُودَ ضَاحِينَ حَسْرَي	منْ وُقُوفٍ خَلْفَ الزّحَام وَخُنْسِ
وكأَنَّ الْقِيَانَ وَسْطَ المَقَاصِرِ	رِ يُرَجِّعْنَ بَيْنَ حُوٍّ ولُعْسِ
وكأَنَّ اللّقَاءَ أَوَّلُ مِنْ أَمْ	سِ وَوَشْكَ الفِرَاقِ أَوَّلُ أَمْسِ
وكأَنَّ الَّذي يُرِيدُ اتَّبَاعًا	طَامِعٌ في لُحُوقِهِمْ صُبْحَ خَمْسِ

والتشبيه بسيط يحكي مجرد الوصف .
والثانية : الصــورة الواقعية ، وتبدو في وصـــفه للوحة المعركة ، وهي لوحة امتدت من البيت الخامس عشر إلي البيت الثامن والعشريم تقرب إلي العين صورة المعركة بين الفرس والروم في أنطاكية ، وهي صورة واقعية تجسيدية لواقعه تفيد الإيضاح.
* ويلجأ الشــاعر إلي التراكيب الفعلية عندما يتحدث عن همومه في الفعل الماضــي : صنت ، نفسي ،ترفعت عن تماسك ، لقد رابني ، أتسلي ، اذكرتني ، وكلها تؤكد حالة نفسية عاشها البحتري.
وأما في وصـف اللوحة فقد اسـتخدم أسـاليب متعددة لعلها تناسـب الوصـف كالجملة الشرطية الطويلة في :

لو تَرَاهُ عَلِمْتَ أنَّ اللَّيَالِي — جَعَلَتْ فيه مأْتمًا بعد عُرْسِ
وَإِذا ما رأيْتَ صُورَ أَنْطَا — كِيَةَ ارْتَعْتَ بيْنَ رُومٍ وفُرْسِ
والمَنَايَا مَوَائِلٌ ، وَأَنُوشِرْ — وانْ يُزْجِي الصُّفوفَ تَحْتَ الدِّرَفْسِ
في اخْضِرَارٍ من اللِّبَاسِ علي أَصـ — فَرَ يَخْتَالُ في صَبِيغَةِ وَرْسِ
وعِرَاكُ الرِّجال بَيْنَ يَدَيْهِ — في خُفُوت مِنْهُمْ وإغْمَاض جَرْسِ
من مُشِيحٍ يَهْوِي بِعَامِلِ رُمْحٍ — ومُلِيحٍ من السِّنَانِ بِتُرْسِ

ويستخدم الجمل الفعلية المضارعة التي تفيد التجديد في قوله:

يَغْتَلِي فِيْهِمْ ارْتِيَابيَ حَتَّي — تَتَقَرَّاهُمْ يَدَايَ بِلَمْسِ

وكلها تحاول أن تساعد الشاعر في إبراز هذه اللوحة التصويرية كلاما وشعرا.
* من خلال القصـيدة نكتشـف أن الرؤية الواقعية التي يعيشـها الشـاعر ، والتي جعلته يلجأ في هذه القصـــيدة إلي حكمة مؤداها أن كل شـــئ لا يبقي علي الزمان بل يفني وينتهي الهموم والآثار والإنسان وكما قال:

أَذْكَرَتْنِيْهِمُ الخُطُوبُ التَّوَالِي — ولقَدْ تُذْكِرُ الخُطُوبُ و تُنْسِي

فكل شئ له عمر ونهاية يتساوي في ذلك هموم الشـاعر بسـبب فسـاد علاقاته بأهله وإخواته ونهاية الدول مخلفة وراءها آثارها التي تشهد عليها

هوامش الفصل الخامس :

١- معجم مقاييس اللغة ج ٦ ص ١١٥

٢- القاموس المحيط ج ٣ ص ٢١١

٣- مصباح المنير ص ٩١١

٤- نقد الشعر ص ١٣٠

٥- مصطلحات نقدية ص ٥٥١

٦- نقد الشعر ص ١٣٠-١٣١

٧- العمدة ج ٢ ص ٢٩٤-٢٩٥

٨- العمدة ج ٢ ص ٢٩٩

٩- أحمد مختار عمر: علم الدلالة٠الكويت دار العروبة ١٩٨٢م ط١ ص ٨٧

١٠- العمدة ص٢٩٦ / أسس النقد الأدبي ص ٢٧٩-٢٨٠

١١- العمدة ص ٣٧٥

١٢- المبرد :الإمام أبي العباسى محمد بن يزيد المبرد (٢٨٦ هـ) : - الكامل في اللغة والأدب ٠عارض أصوله وعلق عليه : محمد أبو الفضل إبراهيم ٠القاهرة دار الفكر العربي ١٩٩٧م ط٣ مج ١ ص ٢٧

١٣- إيليا حاوي : فن الوصف وتطوره في الشعر العربي ٠القاهرة دار الكتاب المصري ، بيروت دار الكتاب اللبناني ١٩٨٧م ص٨

وانظر أيضا : مصطلحات نقدية ص ٥٥٣

: في الشعر العباسي : تطوره وقيمه الفنية . دراسة تاريخية تحليلية ٠ محمد أبو الأنوار القاهرة مكتبة الشباب د.ت ص٢١٩

١٤- فن الوصف ص ٥٩

١٥- فن الوصف ص ١١-١٢ / مصطلحات نقدية ص ٥٥٣

١٦- فن الوصف ص ١٢

١٧- الوصف ص ١٦- ١٧

١٨-فن الوصف ص ٣٩

١٩- الوصف ص ٤٧ - ٥١

٢٠- فن الوصف ص ١٣٠-١٣١

٢١- نفسه ص٥٣-٩٦

٢٢- الوصف ص ٧١

٢٣- فن الوصف ص ٢٢٢- ٢٢٣

٢٤- الوصف ص ١٠٣-١١٠

٢٥- الأصفهاني : تجريد الأغاني : تجريد ابن واصل الحموي ٠تحقيق : طه حسين وإبراهيم الغبياري ٠ القاهرة الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٧م ٠ القسم الثاني الجزء الثاني ٢ ص١٧٠/١٧١م

٢٦- تاريخ الأدب العربي ح٢ ص٣٥٨

٢٧- تاريخ الأدب العربي ج٢ ص ٣٥٨-٣٦٠

٢٨- البحتري : أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري (ت٢٨٦هـ) : ديوان البحتري : تحقيق : حسن كامل الصيرفي. القاهرة دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٣م. . ج٢ ص١١٥٢-١١٦٣

٢٩- ترجيح المحقق ديوان البحتري هامش ص ١١٥٣

٣٠-المنخب من أدب العرب ٠جمعه وشرحه طه حسين ، أحمد الإسكندري ، أحمد أمين ، على الجارم ، عبد العزيز البشري ، أحمد ضيف ٠القاهرة الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠١م ج ٢ ص٢٧٦

٣١- عبد الله التطاوي : سـينية البحتري : البعد النفسـي والمعارضـة القاهرة دار غريب ١٩٩٥م ص ٢٨

٣٢- فن الوصف ص ١٧٤

٣٣- دراسات في النص الشعري في العصر العباسي ص ١٤٨.



المصادر والمراجع

المصادر:

* الأصفهاني : تجريد الأغاني : تجريد ابن واصل الحموي ،تحقيق : طه حسين وإبراهيم الغبياري ، القاهرة الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٧م ، مج٦

*البحتري : أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري (ت٢٨٦هـ) :

١-ديوان البحتري : تحقيق : حسن كامل الصيرفي. القاهرة دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٣م. . مج٦

٢- الحماسة : تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعي ،بيروت ١٩١٠م

* البصري : علي بن الفرج بن الحسن البصري (ت ٦٥٩هـ) : الحماسة البصرية : تحقيق مختار الدين أحمد ، الهند حيدر آباد الدكن دائرة المعارف العثمانية ١٩٦٢م جزآن

* أبو تمام : حبيب بن أوس الطائي (ت٢٣١هـ) : ديوان الحماسة : تحقيق : عبد المنعم أحمد صالح ، القاهرة الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٦م

* ثعلب :أبي العباس أحمد ثعلب (ت ٢٩١ هـ): قواعد الشعر شرح وتعليق ، د، محمد عبد المنعم خفاجة – القاهرة – مصطفى الحلبي– ١٩٤٨ – ط ١

* الجرجاني : القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت ٣٦٦ هـ) : الوساطه بين المتنبي وخصومه – تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم و علي محمد البجاوي – القاهرة عيسي البابي الحلبي ١٩٦٦م

* حازم القرطاجنى(ت٦٨٤ هـ) أبي الحسن حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق : محمد الحبيب بن الخوجة – بيروت دار الغرب الاسلامى ١٩٨٦ ط ٣

*الخالديان : أبي بكر محمد بن هاشم (٣٨٠هـــ) ، أبي عثمان سعيد بن هاشم (ت٣٩١هـ) : حماسة الخالديين : الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين ٠تحقيق : السيد محمد يوسف القاهرة الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٢م

* ابن رشيق القيروانى :أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت٤٥٦ هـــ) : العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده ٠تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – بيروت دار الجيل – ١٩٨١ م ط ٥ جزآن

* الزوزني : عبد الله بن محمد بن يوسف (ت٤٣١هـــ) : حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء ٠ تحقيق : محمد جبار المعيبد بغداد وزارة الثقافة والفنون ، دار الحري للطباعة ١٩٧٣م/١٩٧٨م٠

*ابن سلام الجمحي (ت٢٣١هـ) : طبقات فحول الشعراء ٠ تحقيق محمود محمد شاكر ٠ القاهرة مكتبة الخانجي ١٩٧٤م جزآن

*ابن الشجري :أبو السعادات هبة الله بن علي بن حمزة (ت٥٤٢ه): الحماسة الشجرية تحقيق : عبد المعين الملوحي وأسماء الحمصي ٠ دمشق وزارة الثقافة ١٩٧٠م جزآن

* العسكري : لأبى هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى (ت ٣٩٥ هـــ) – كتاب الصناعتين الكتابة والشعر ٠ تحقيق : مفيد قميحة – دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٨١ – ط ١

* عمر بن أبي ربيعة : ديوان عمر ابن أبي ربيعة بشرح وتقديم : عبد أ . على مهنا بيروت دار الكتب العلمية ١٩٨٦ م

* ابن فارس : أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت٣٩٥هـ) : معجم مقاييس اللغة ، تحقيق وضبط : عبد السلام محمد هارون بيروت دار الجيل ١٩٩١م ط١
* الفيروزآبادي : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي : القاموس المحيط – القاهرة – مصطفي البابي الحلبي ١٩٥٢ ط٢ ج٤
* الفيومي : أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي (ت٧٧٠ هـ) : المصباح المنيرفي غريب الشرح الكبير للرافعي ، القاهرة المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٢٢م
* قدامة بن جعفر (٣٣٧هـ) : نقد الشعر ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ، القاهرة مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٩م ط١
* المبرد :الإمام أبي العباسى محمد بن يزيد المبرد (٢٨٦ هـ):
١–التعازى والمراثى والمواعظ والوصايا ،تحقيق : إبراهيم محمد حسن الجمل ،القاهرة نهضة مصر ١٩٩٣ م
٢– الكامل في اللغة والأدب ،عارض أصوله وعلق عليه : محمد أبو الفضل إبراهيم ،القاهرة دار الفكر العربي ١٩٩٧م ط٣ مج٤ ،
* المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري المسمي بالتبيان في شرح الديوان. طبعه وصححه ووضع فهارسه وحققه: مصطفي السقا ، إبراهيم الأبياري ، عبد الحفيظ شلبي. القاهرة مصطفي البابي الحلبي ١٩٧١م ح٤
* المرزباني : أبي عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني (ت ٣٨٤هـ) : الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، القاهرة نهضة مصر د،ت
* ابن منظور (ت ٧١١ هـ) : محمد بن المكرم : لسان العرب القاهرة دار المعارف د، ت
* ابن واصل الحمري : تجريد الاغاني القسم الثاني – الجزء الثاني، تحقيق طه حسين وابراهيم الابياري القاهرة الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٧م

المراجع :

* أحمد أحمد بدوى : أسس النقد الأدبى عند العرب ٠ القاهرة – دار نهضة مصر – ١٩٧٩م

* أحمد شوقي بك : شوقيات ٠ القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية د٠ت في أربعة أجزاء ٠

* أحمد مختار عمر: علم الدلالة ٠ الكويت دار العروبة ١٩٨٢م ط١

* إيليا حاوي : فن الوصف وتطوره في الشعر العربي ٠القاهرة دار الكتاب المصري ، بيروت دار الكتاب اللبناني ١٩٨٧م

* البارودي : ديوان البارودي م٢ تحقيق محمد شفيق معروف الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢م

* جبور عبد النور : المعجم الأدبي : دار العلم للملايين ١٩٨٤م

* جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ج٣ القاهرة دار الهلال د.ت ج ٣

* حافظ إبراهيم : ديوان حافظ إبراهيم ضبط أحمد أمين القاهرة المطبعة الأميرية ١٩٥٦ م .

*حنا الفاخوري : الفخر والحماسة القاهرة دار المعارف ١٩٩٢م

الحكم والأمثال القاهرة دار المعارف

* حنا الفاخوري : الفخر والحماسة : القاهرة دار المعارف ١٩٩٢م

* درويش الجندى : ظاهرة التكسب واثرها فى الشعر العربى ونقده القاهرة دار نهضة مصر ١٩٦٩ م

*سامي الدهان : الغزل القاهرة دار المعارف ١٩٨١م

الوصف القاهرة دار المعارف ١٩٨١م

الهجاء القاهرة دار المعارف ١٩٥٨م
المدح القاهرة دار المعارف
* سليمان العطار : شرح المعلقات السبع القاهرة دار الثقافة ١٩٩٤ م
* شوقي ضيف :* العصرالجاهلي ، القاهرة دار المعارف ١٩٨١م
*العصر الإسلامي ، القاهة دار المعارف ١٩٨٩م
* شوقي شاعر العصر الحديث ، القاهرة دار المعارف ١٩٧٧م
* فصول في الشعر ونقده ، القاهرة دار المعارف ١٩٧٧م
*الرثاء ، القاهرة دار المعارف ١٩٨٧م
* المقامة القاهرة دار المعارف
*الرحلات القاهرة دار المعارفم
* شكرى فيصل : مناهج الدراسة الأدبية . بيروت دار العلم للملايين ١٩٨٦م
* طه حسين : مع المتنبي . القاهرة . دار المعارف ١٩٣٧م ط هـ
* عبد العزيز نبوى : دراسات فى الأدب الجاهلى– القاهرة – الصدر لخدمات الطباعة ، ١٩٨٨ – م ط ثانية –
* عبد الله التطاوي : سينية البحتري : البعد النفسي والمعارضة القاهرة دار غريب ١٩٩٥م * عبده بدوي: دراسات في النص الشعري العباسي – الرياض دار الرفاعي ١٣٠٣هـ (الكويت دار الرفاعى للنشر ١٩٨٤ م ط ثانية)
* عدنان عبيد العلي : منهجية تاريخ الأدب بين الأصالة والتجديد : مجلة البيان الكويتية عدد ٢٣٣أغسطس /آب ١٩٨٥م / ذو القعدة ١٤٠٥هـ
* عز الدين اسماعيل : المصادر الأدبية اللغوية فى التراث العربى ، القاهرة – دائرة المعارف ١٩٨٢م
* عمر الدسوقي: في الأدب الحديث ، الانجلو

* عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي : ، بيروت دار العلم للملايين ١٩٨٤م ٦ مج
* كارل بروكلمان : تاريخ الادب العربى نقله الى العربية : عبد الحليم النجار – القاهرة دار المعارف ١٩٨٣ م
* محمد عجيبة : موسوعة الأساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها ،بيروت دار الفارابي ١٩٩٤م ط أولى ص ٣٣٤-٣٣٥
* محمد عزام : مصطلحات نقدية من التراث الأدبي العربي ،دمشق وزارة الثقافة ١٩٩٥م
* محمود سامي الدهان : الغزل ، القاهرة دار المعارف ١٩٨١م جزآن
* محمود سامي الدهان : الوصف : القاهرة دار المعارف ١٩٨١م
* ناصيف اليازجي :كتاب مجموع الأدب في فنون الأدب بيروت ١٩٣٧م ط٨
*يوسف خليفة : تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي القاهرة دار الثقافة ١٩٧٦م

المحتوي

Contents

رقم الإيداع	٢٠٠٣/٤١٣٠م
الترقيم الدولي	I.S.B.N. ٤٧٧,٢٤١,٤٧٩,١

مطبعة العمرانية للأوفست

الجيزة ت : ٧٧٩٧٥٥٠